الفكر الديني وقضايا العصر

تأليف
الأستاذ الدكتور
محمود حمدي زقزوق
رئيس مركز الحوار بالأزهر الشريف
وعضو هيئة كبار العلماء وعضو مجلس حكماء المسلمين

(الجزء الأول)

عدد جمادى الآخرة ١٤٤١ هـ

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١ م

رئيس التحرير
أ.د محمود حمدي زقزوق

مجلس التحرير
أ.د إبراهيم الهدهد أ.د عبد الفتاح العواري أ.د عبد المنعم فؤاد

مدير التحرير
أ. محمود الفشني

بسم الله الرحمن الرحيم

طليعة الكتاب

لا جدال في أن هناك خللًا ما في الفكر الديني المعاصر، ولكن هذا الخلل ليس وليد اليوم، فهو خلل يمتد لقرون عديدة سابقة شهدت تراجعَ الحضارةِ الإسلامية، وقد انعكس هذا التراجع على الفكر الديني إن لم نقل: إن تخلُّف الفكر الديني كان أحد أهم أسباب هذا التراجع؛ ويدل على ذلك أن جهود العديد من المصلحين على مدى القرون الماضية قد انصبّت على إصلاح الفكر الديني اقتناعًا منهم بأن إصلاح الفكر الديني هو السبيل إلى إصلاح الفكر بصفة عامة، الأمرُ الذي من شأنه أن ينعكس بدوره على أحوال الأمة في شتى أنحاء العالم الإسلامي.

وكان أبرزُ مَن تصدّى لذلك في العصر الحديث الشيخ محمد عبده وتلاميذه من بعده، وعلى الرغم من الجهود الحثيثة والمحاولات المتواصلة على هذا الطريق؛ فإن النتائج ظلت متواضعة إلى حد بعيد، وذلك بالنظر إلى العقبات الكبيرة التي تراكمت على مر الأيام، وتركت آثارها العميقة على عقول المشتغلين بالفكر الديني، مما تسبب في كل مرة في عودة المياه الراكدة إلى سكونها المعتاد.

وعلــى الرغم من كل ذلك فإننا لم نصل إلى حد اليأس، ولا يجــوز لنا أن نُصاب بالإحباط، فما دامت الحياة مســتمرة في سيرها فالأمل سيظل قائمًا في تغيير الفكر وتصحيح المسار.

ومن هنا كان هذا التنبيه النبوي الذي يقول: «إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[1]، وهذا الحديث ليس المقصود منه حَرفيَّة النَّصِّ وانتظار تمام المئة ســنة حتى يَظهَر مُجدِّدٌ يُلقي بحجــر في مياه الفكر الراكدة؛ فالمقصــود هو حقيقة التجديد بصرف النظر عن بداية المئة سنة أو منتصفها أو ختامها.

ولا يجــوز أن تتوقف محاولات التجديــد والإصلاح بالنظر إلــى بطء الثمار، فبعض الأفكار قد تأخذ وقتًا غير قصير إلى أن تُثمــر ثمرتها المرجوة؛ فحيــاة الفكر ونموه في حاجة إلى الكثير من الوقــت والصبر والعنايــة المتواصلة حتى تتحقق الآمال المعقودة عليه.

إن الأمة في حاجة مســتمرة إلى التذكير بما يحيط بها من مشكلات، وما يواجهها من تحديات على مستوى الفكر بصفة عامة، والفكر الديني بصفة خاصة، والكشــف عن الكثير من الحقائق الغائبة التي توارت أمام ركام الغثاء الذي ملأ الساحة

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١) واللفظ له، والحاكم في المســتدرك: ٥٢٢/٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة: ص٢٠٣: «إسناده صحيح».

الفكرية الدينية، كما أن هناك ضرورة ملحة للتوعية المتواصلة بقيم الدين الدافعة إلى تقدُّم المجتمع وترقية الحياة.

والكتـاب الذي يسـرنا اليوم أن نُقدِّمه إلـى القارئ الكريم نحاول من خلاله - اسـتكمالًا لما بدأناه في مؤلفات أخرى - أن نلفـت الأنظار وننبه الأذهان إلـى ضرورة إعادة النظر في الأوضـاع التي آلـت إليها أحوال أمتنا الإسـلامية على مختلف المسـتويات بصفة عامة، وعلى مسـتوى الفكر الديني بصفة خاصة فـي محاولةٍ لإعادة الوعي بالمسـئولية الحضارية من أجل إخراج هذه الأمة من أزمتها الحضارية الراهنة التي طالت أكثر مما ينبغي.

والموضوعات التي اشتمل عليها هذا الكتاب تمثل مجموعة مقـالات ومحاضـرات تم إعدادها فـي السـنتين الماضيتين، ننشـرها هنا دون تغيير أو تعديل، وقد قسَّـمناها إلى خمسة فصول؛ يشـتمل كل فصلٍ منها على الموضوعات التي تتصل بطريق مباشـر أو غير مباشـر بالعنوان الـذي وضعناه لكل فصل، وذلك على النحو التالي:

لقد جاء الفصل الأول بعنـوان: الفكر الديني والحقائق الغائبة، وجاء الفصل الثاني بعنوان: العقل الإنساني ودوره فـي التقدم الحضاري، أما الفصل الثالث فقد جاء بعنوان: قضايـا معاصـرة في ضـوء تعاليم الإسـلام، وفي الفصل

الرابــع تناولنا موضوع الإســلام والغــرب وقضايا الحوار، أمــا الفصل الخامــس والأخير فقد جاء بعنــوان: حوارٌ مع الماضي البعيد.

ونأمــل أن يكــون في هذه الفصــول فائدةٌ لقــارئٍ أو نفعٌ لباحــثٍ أو تنبيهٌ لغافلٍ أو تذكيرٌ لكل مَن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيدٌ.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

أ.د. محمود حمدي زقزوق

رئيس مركز الحوار بالأزهر الشريف

وعضو هيئة كبار العلماء وعضو مجلس حكماء المسلمين

الفصل الأول

الفكر الديني والحقائق الغائبة

تجديد الفكر الديني.
مقاصد الشريعة.
الاجتهاد والتقليد وفقه الواقع.
الدين والفلسفة.
الدين والخرافة.
السنن الإلهية ومفاتيح الحضارة.
الإرادة الإنسانية والقضاء والقدر.
قل إنما أنا بشر مثلكم.
الإيمان والحب.

(١)

تجديد الفكر الديني

يطلــق الفكر ويراد بــه بوجه عام جملة النشــاط الذهني، كما يــراد به أيضًــا حركة التصــورات والمفاهيــم في العقل الإنســاني، وهذا يعني أن الفكر يمثل نشاطًا وحركة مستمرة، فإذا توقفت هذه الحركة فإن ذلك يعني توقف حياة الإنســان أو غيابه عــن الوعي، ولعل ذلك ما دعا الفيلســوف المعروف ديكارت إلى اعتبار الفكر مســاويًا للوجــود حين قال عبارته الشــهيرة: «أنا أفكر، إذن أنا موجود»، فإذا وصفنا الفكر بأنه علمــي فمعنى ذلك أنــه فكر منظم، فالإنســان حينئذ لا يترك مفاهيمه وتصوراته حرة تحوم في نفســه كيفما اتفق، وإنما يقودها بكل حزم على أسس منهجية إلى هدفه الذي هو العلم، وعندمــا نصف الفكر بأنه ديني فلا يعني ذلك أنه فكر مضاد للعلــم، وإنما هو أيضًــا فكر منظم يقوم على أســس وقواعد تؤدي إلى معلومات دينية صحيحة.

والتجديــد في الفكر ســنة من ســنن الحياة، وبــدون هذا التجديد سيبقى كل شيء على حاله دون تغيير، وبذلك تتجمد الحيــاة، وهذا أمر مضاد لطبيعة الحيــاة ذاتها، ونظرًا إلى أن الفكــر الدينــي يعد جــزءًا لا يتجزأ من الفكر الإنســاني، فإنه يمكن القول بأن تجديد الفكر الديني يعد ضرورة حياتية.

ومن المأثــورات النبوية المعروفة: «إِنَّ اللــهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ

عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَـنَةٍ مَـنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَـا»[٢]، وهذا الحديث النبوي من شأنه أن يدفع علماء الدين من المسلمين إلى التجديد المستمر في الفكر الديني؛ لأن الدين بطبيعته قد جاء ليكون دينًا للحيـاة بكل أبعادها المختلفة، ومن هنا فإنه لا يجوز أن ينفصل عن الحياة والتأثير فيها، فإذا تم عزله عن الحياة فسـيتحول إلى مجرد رسوم وطقوس شكلية لا روح فيها ولا حياة.

والتجديـد في الفكر الدينـي عمل يقوم به الإنسـان الذي يرتـاد الطريـق لقومه فيـرى ما لا يـرون، والذيـن يرتادون الطريـق ويتقدمون الصفوف ويكشـفون معالـم الطريق هم الرواد فـي كل أمةٍ وهـم المجددون، وقد شـهد تاريخ الفكر الإسـلامي العديد من هؤلاء الرواد الذين أَثْرَوا الحياة الإسلامية والفكر الإسلامي برؤاهم السديدة وأفكارهم الرشيدة.

واعتمادًا على المأثور النبوي المُشار إليه وجدنا العديد من مفكري الإسلام المستنيرين يبذلون جهودهم في سبيل تجديد الفكر الديني، وفي هذا الاتجاه وجدنا الشيخ أمين الخولي في كتابه: «المجددون في الإسلام» يعود بنا إلى المؤلفين القدامى الذين كرسـوا جهودهم في قضيـة التجديد، ومن هؤلاء جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) في كتابه: «التنبئة بمن يبعثه الله علـى رأس كل مئـة»، والمراغي الجرجـاوي (١٠٣٥هـ) في كتابه: «بغية المقتدين ومنحة المُجدِّين على تحفة المهتدين».

وقـد بلغت فكـرة التجديد للدين ـ كما يقول الشـيخ أمين

(٢) سبق تخريجه.

الخولي - إلى حد أن نُظِّمت شعرًا كما نُظِّمت متون العلوم، وإذا كان الأقدمون قد بدءوا حديثهم عن التجديد مبكرًا منذ حوالي القرن الثالث الهجري فإنه ـ كما يقول أيضًا -: «لم يبق بعد ذلك مقال لقائل ولا اعتراض لمعترضٍ، ولم تعد فكرة التجديد بدعًا من الأمر يختلف الناس من حوله، فتخسر الحياة ضحايا من الأشخاص والأعراض والأوقات مما ينبغي أن تدخره الحياة لتفيد منه في ميادين نشاطها، ولا تُضيِّع الوقت والجهد في تلك المهاترات التي تكثر وتسخف حول كل محاولة جادة لدفع الحياة الدينية والاجتماعية إلى ما لا بد منه من سير وتقدم وتطور ووفاء بما يَجدُّ دائمًا من حاجات الأفراد والجماعات.

وتواصلًا مع الجهود القديمة شهد العصر الحديث الكثير من محاولات التجديد على يد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهما ممن خصص لهم أحمد أمين كتابه: «زعماء الإصلاح في العصر الحديث»، ومن بين الأسماء البارزة في هذا الصدد الشيخ حسن العطار، وتلميذه رفاعة الطهطاوي، والشيخ محمد مصطفى المراغي، والشيخ محمود شلتوت، ومالك بن نبي، وزكي نجيب محمود، وغيرهم كثيرون، ولكل منهم أسلوبه في التجديد ومنهجه في الإصلاح، ولكنهم جميعًا يتفقون في الهدف المتمثل في ضرورة فهم الدين على أنه دين محرك للحياة بكل أبعادها، فهو علم ومعرفة وأخلاق وحضارة، فضلًا عن كونه عقيدة وشريعة.

وقد ألف الشيخ عبد المتعال الصعيدي في منتصف القرن الماضي مجلدًا كبيرًا بعنوان: «المجددون في الإسلام»، ولم يقتصر الأمر على المفكرين العرب، فقد انطلقت أصوات المجددين من مناطق أخرى من العالم الإسلامي، ومن هؤلاء ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ محمد إقبال في الهند ـ قبل التقسيم ـ في كتابه المعروف: «تجديد التفكير الديني في الإسلام»، وقد كانت آلية التجديد في كل هذه الجهود تتمثل في مبدأ الاجتهاد الذي يُعد اليوم الفريضة الغائبة في عالمنا الإسلامي المعاصر.

ولكن التيار الأعظم من علماء المسلمين على مر العصور وقف عقبة في طريق أي تجديد، ناهيك عن أي اجتهادٍ، ومن هنا تجمد الفكر الديني وتجمد الاجتهاد، ووقف الفكر الديني عند فترات التراجع الحضاري، يجتر من تراثها ويعود باستمرار إلى ما أفرزته من جمود فكري متحجر، فالدين في عُرف هذا التيار ليس في حاجة إلى تجديد أو اجتهاد جديد، وذلك في تحدٍّ واضح للمأثور النبوي المشار إليه، وترسيخًا لهذا الفهم المتخلف في العقول انتشرت بين المسلمين مقولات تقول: «ليس في الإمكان أبدع مما كان»، «ولم يترك الأول للآخر شيئًا».

وهذه المواقف المتحجرة تسير في اتجاه مضاد لسنة الحياة وطبيعة الأشياء، فرَكْب الحياة يواصل السير بلا انقطاع، وعجلة الزمن لا تتوقف عن الدوران، ولكن عقول

كثير من القائمين على أمر الدين لم تعد قادرة على مسايرة الزمن ولا مؤهلة لفهم تطورات العصر، وأصبحت أصوات المنادين بالتجديد بمثابة صرخة في واد أو نفخةٍ في رمادٍ.

وتقنع الغالبية العظمى من علماء الدين في عالمنا العربي والإسلامي بما لديهم من علم قديم ورثوه عن الأسلاف، وينامون قريري الأعين يغطون في سبات عميق لا شأن لهم بما يدور في عالم اليوم، يسخرون من دعاة التجديد ويعتبرونهم مارقين خارجين عن جادة الصواب، أما غيرهم ممن يحتكرون الإسلام لأنفسهم ويُقصون غيرهم من ساحته، فكل همهم هو الحصول على مكاسب سياسية تصل بهم إلى كراسي الحكم، وهكذا يتجنى هؤلاء وأولئك على الإسلام أكثر من جناية خصومه عليه.

ولا شك في أن قعود علماء الأمة ومجتهديها عن تحمل مسئولياتهم قد فتح الباب على مصراعيه للغلاة والمتشددين والمتعصبين والجاهلين، الأمر الذي عم بلاؤه واشتدت وطأته، وتم اختزال الدين في بعض الشكليات التي خرجت به عن جوهره الحقيقي في كونه دينًا للحياة.

فهل نترك دعاة الجمود والجهل والتخلف يقودون مسيرتنا الدينية والاجتماعية والحضارية بصفة عامة؟ إننا إذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد فرطنا في الأمانة وتخلينا عن المسئولية المُلقاة على عاتقنا نحو ديننا وأوطاننا، ولا بد لنا من البحث عن سبيل للخروج من المأزق الحضاري الراهن الذي يتوقف

استمراره على استمرار سيطرة الفكر الديني المتخلف، الذي راح يمتد كالأخطبوط في مجرى حياتنا وشرايين مجتمعنا.

ولعلي أسمح لنفسي بأن أعرض اقتراحًا متواضعًا في هذا الصدد، أرجو أن يكون له رد فعل إيجابي، ويتلخص هذا الاقتراح في تشكيل مجموعة عمل من صفوة العلماء والمفكرين والمهتمين بأمر الفكر الإسلامي والمعنيين بقضايا الأمة، وتتكون هذه المجموعة من عدد لا يزيد على خمسة عشر عضوًا، وتتفرغ لعملها مدة كافية، وتتاح لها كل الإمكانات اللازمة لتقوم بالمهام التالية:

أولًا: وضع خطة شاملة ومتكاملة لتجديد الفكر الديني بصفة خاصة، وتجديد الفكر بصفة عامة، وتقدم مشروعًا قابلًا للتطبيق، تسترشد به الأمة في مسيرتها الحضارية؛ لإخراجها من النفق المظلم الذي يراد لها أن تظل حبيسة فيه.

ثانيًا: تحديد الآليات المناسبة للتنفيذ، الذي يجب أن تشارك فيه جهات عديدة، مثل الأزهر الشريف ووزارات الأوقاف والثقافة والإعلام والتربية والتعليم، والتعليم العالي، والتنمية المحلية والمجلس الأعلى للشباب، وغيرها من جهات حكومية وأهلية أخرى.

ثالثًا: اقتراح قائمة بالموضوعات ذات الأولوية التي يمكن بحثها، وإعداد دراسات جادة فيها، يقوم بإعدادها صفوة من العلماء والمفكرين، ويتم توزيعها في مكتبة الأسرة على نطاق واسع، وتجري مناقشتها في البرامج المختلفة في

وســائل الإعلام وتضمينها في المناهج الدراسية في المدارس والجامعات فــي حملة قومية جــادة للتنويــر، وتتبنى الدولة تنفيــذ الخطة الموضوعة على النحو المشــار إليــه، نظرًا لأن الجهــود الحالية ـ علــى الرغم من أهميتهــا البالغة ـ مبعثرة ومصابة بداء التشرذم في جزر منعزلة دون أي تنسيق، الأمر الذي يفقدها الكثير من الفاعلية والتأثير.

إن هــذا الأمر جــد لا هزل فيــه، ولم يعد يحتمــل التأخير، وفكرنا بصفة عامة، وفكرنا الإســلامي بصفة خاصة، في أشد الحاجة إلى التجديد لنضخ في شــرايينه دمــاء ثقافة جديدة تعمــل على تمكيــن العقل مــن أداء دوره كاملًا فــي الحياة، وتحريك الطاقات الكامنة لدى الشباب، وتشجيع الراغبين في العمل على المشــاركة الجادة من أجل تغيير الواقع المتخلف، وإنقــاذ أمتنا مما يتهددها مــن تطرف بغيض في الفكر وفي الســلوك، وتواكل مرذول في ميادين العمــل وفقدان لهويتها الحضارية، ولســنا في هذا الصدد أقــل من ماليزيا التي تقوم حاليًا بتنفيذ مشــروع أســمته: «الإســلام الحضــاري» تتبناه الدولة هناك بكل مؤسساتها.

إنني إذ أطرح هذا الموضوع للمناقشة فإني آمل أن يشترك مثقفونــا وعلماؤنــا في بلورة هذه القضيــة وإلقاء المزيد من الأضواء عليها، لنصنع معًا عملًا ننهض فيه بأمتنا ونؤدي لها بعض الدَّين المستحق لها في أعناقنا.

(٢)

مقاصد الشريعة

يهتم كثيرٌ من المتدينين اهتمامًا كبيرًا بأداء الشعائر الدينية المفروضة، من صلاةٍ وصيام وزكاةٍ وحجٍّ، ويعتقدون أنهم بذلك قد التزموا بتعاليم الدين، وأرضوا الخالق الذي ينتظرون منه سبحانه أن يجزل لهم الثواب في الآخرة، وهذا هو مبلغهم من العلم، ولا يشغل هؤلاء أنفسهم بما وراء ذلك من مقاصد وغاياتٍ.

فتصوُّرهم لمفهوم العبادة ينحصرُ في هذه الشعائر المعروفة اعتمادًا على ما جاء في القرآن الكريم من أن الله -سبحانه وتعالى- خلق الإنس والجن لهدف واحد، وهو العبادة لله وحده في قوله تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

(الذاريات: ٥٦)

وحقيقة الأمر أن مفهوم العبادة في الإسلام، الذي تقصده الآية الكريمة، يتسع ليشمل كل عمل يقوم به الإنسان في هذه الحياة، أيًّا كان هذا العمل دينيًّا أم دنيويًّا، طالما قصد به المرء وجه الله ونفع الناس ودفع الأذى عنهم، فذلك كله داخل في مفهوم العبادة.

ولا شك في أن أداء الشعائر المفروضة أمر مهم للغاية؛ لأن الإسلام قد قصد بها مصلحة الإنسان في المقام الأول، فالله

غنـيٌّ عنَّا وعن عبادتنا- كما يؤكد ذلـك القرآن الكريم- ولكنه فـرض علينا هذه الفرائض تربية وتهذيبًا وارتقاء بالإنسـان، فالصلاة هدفها- كما جاء في القرآن الكريم- أن:

﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾

(العنكبوت: ٤٥)

والصيـام هدفـه التقـوى، أي الوقايـة مـن الوقـوع فـي المنكرات، والزكاة تطهير وتزكية للإنسان، والحج فيه منافع دينية ودنيوية.

ولكن الإسـلام ليس هـو هذا الجانب الشـعائري فقط، إنه أكبر من ذلك بكثير، فهذه الشـعائر- فـي حقيقة الأمر- تعد وسـائل لغاية كبرى، فمن المعلوم أن الإنسان لا يعيش وحده في هذا الكون، ومن هنا فإن علاقته في هذا الوجود تدور في دوائر ثلاث تنحصر في علاقته بنفسـه وعلاقته بالآخرين من بشـر وكائنات حية وغير حية، وعلاقته بخالق الكون وهو الله -سـبحانه وتعالى-، وعلى الإنسان أن يبذل جهده في سلامة هذه العلاقات واسـتقامتها وتحقيـق المصالحة مع ذاته ومع الآخريـن ومع الله -سـبحانه وتعالى-، ومن شـأن الشـعائر الدينية أن تدرب الإنسان على تحمل مسئولياته في هذا الصدد، فإذا لم تفلح في ذلك فلا خير فيها، فقد حُكي للنبي ﷺ شأن امرأة تصوم وتصلي وتزكي ولكنها تؤذي جيرانها بلسـانها، فقال: «هِيَ فِي النَّارِ»[٣] كما ورد في الحديث الشـريف أيضًا:

(٣) أخرجه أحمد في مسـنده (٩٦٧٥) وابن حبان في صحيحه (٥٧٦٤- الإحسان) من=

«دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ، حَتَّى مَاتَتْ هَزْلًا»(٤).

فالشعائر إذن وسائل تربوية للوصول إلى غايات أسمى ومقاصد نبيلة، إذا تحققت كان لها أثرها في نشر الأمن والسلام في كل ربوع المجتمع.

ويمكن إجمال المقاصد الشرعية من الأحكام التي جاءت بها الشريعة الإسلامية في كلمة واحدة، تعد عنوانًا على الإسلام ذاته، ونعني بذلك قيمة «الرحمة» التي جعلها القرآن الكريم الهدف الأسمى من الرسالة الإسلامية كلها، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾

(الأنبياء: ١٠٧)

والتي تعد على قمة منظومة القيم الإسلامية.

ومن هنا اتجه الإسلام في أحكامه إلى تأكيد أمور ثلاثة تنبع كلها من ينبوع الرحمة، **ومن هذه الأمور العبادات** التي شرعها الله تهذيبًا للنفس الإنسانية، لتجعل من الفرد مصدر خير للمجتمع- كما سبقت الإشارة إلى ذلك، **أما الأمر الثاني** فهو إقامة العدل بين الناس دون استثناء حتى مع الأعداء:

=حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه زيادة، وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار: ص٦٧٥: «إسناده صحيح».

(٤) أخرجه البخاري (٣٣١٨) ومسلم (٢٦١٩) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨)

أما الأمر الثالث فيتمثل في تأكيد المصلحة الحقيقية للناس في دنياهم وأخراهم، والمصلحة المقصودة هنا لا صلة لها بالأهواء والأغراض، ولا بالمصالح الفردية، وإنما تعني الخير كل الخير بأشمل معانيه للناس جميعًا.

ومن هنا شرع الإسلام من الأحكام ما يحمي هذه المصالح التي تبلغ الحاجة إليها مبلغ الضرورة، ولا تقوم حياة الناس بدونها، وهذه المقاصد الضرورية تتلخص في خمسة مبادئ أساسية، هي حماية النفس والعقل والدين والنسل والمال، وحياة الإنسان في هذه الدنيا تقوم على هذه الأمور الخمسة التي تعد ضروريات لازمة للإنسان من حيث هو إنسان، كما تعد أصولًا راسخة لحقوق الإنسان العامة التي ينادي بها المجتمع الإنساني في العصر الحديث، والتي لا تتوافر الحياة الإنسانية الرفيعة إلا بها.

ويعد المقصد الأول وهو حماية النفس- أو بمعنى آخر الحق في الحياة- أصلًا لكل الحقوق الإنسانية، ولا مجال للحديث عن حقوق أخرى إذا أنكرنا على الإنسان هذا الحق، وكل إنسان في المجتمع من حقه أن يكون آمنًا على حياته، وإذا كان الله قد كرم الإنسان- كما جاء في القرآن الكريم- فإن هذه الكرامة ذات أبعاد مختلفة، فهي حماية إلهية للإنسان تنطوي على احترام عقله وحريته وإرادته، وتنطوي

أيضًا على حقه في الأمن على نفسه بصرف النظر عن جنسه أو لغتــه أو معتقده، والقرآن الكريــم يجعل العدوان على فرد واحد بمثابة عدوان على البشرية كلها.

وإذا كان تقديــر الإســلام لصيانة حياة الإنســان على هذا النحو، فإن الهدف لا يتحقق إلا بضمان صيانة العقل الإنساني الذي به يتم العمل على صيانة الحياة على أفضل الوجوه.

ومن هنا كان اهتمام الإسلام بالحفاظ على العقل الإنساني وحمايتــه مــن العبث به بأي شــكل من الأشــكال، ولا يكتمل الحفــاظ علــى العقــل إلا بضمان حق الإنســان فــي الحرية، فالحريــة هي قوام العقل، وافتقادهــا يعني إلغاء دور العقل، وإلغاء دور العقل يؤدي إلى تخلف الفكر، وبالتالي يؤدي إلى تخلف المجتمع، ومن أجل ذلك فإن حفظ العقل يعني ضمان الحرية للعقــل، وحمايته من أي عدوان على حقه في التفكير والتعبير.

والحفــاظ على العقــل لا يكتمل أيضًا إلا بضمــان التعليم للإنســان، لتتســع مداركه ويتســع أفق الرؤيــة العقلية لديه، وبالتالي يكون قادرًا على المشاركة الفعالة في تنمية المجتمع وتقدمه وازدهاره، ويكون أيضًا جديرًا بخلافة الله في الأرض وإعمارها بالعلم وصنع الحضارة فيها.

والعقل من جانب آخر هو الذي يرشــد الإنسان إلى الدين، والدين يعــد نزعة فطرية أصيلة في نفس الإنســان، واختيار عقيدة إيمانية معينة حق أصيل من حقوق الإنسان، فلا إكراه

في الدين، كما يؤكد ذلك القرآن الكريم:

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

(الكهف: ٢٩)

فحرية الاختيار مكفولة، ولا يجوز أن يتدخل أحد في حرية الإنسان واختياره لعقيدته، وذلك مبدأ ثابت في الإسلام يضمن حرية الاختيار للمعتقد الديني، دون تخويف أو إكراه، ومن هنا يفهم حرص الإسلام على جعل حفظ الدين وحمايته ومنع العدوان عليه حقًّا أصيلًا للإنسان، ومقصدًا أساسيًّا من مقاصد الشريعة الإسلامية، التي ترفع لواء التسامح الذي لا نظير له في السابق ولا في اللاحق.

أما المقصد الرابع من مقاصد الشريعة الإسلامية فهو حفظ النسل، ويعني- بصفة عامة- المحافظة على النوع الإنساني، كما يعني- بصفة خاصة- المحافظة على الأسرة التي تعد الخلية الأولى في تكوين أي مجتمع إنساني سليم، والزواج يعد السبيل الوحيد لتكوين الأسرة في الإسلام، وحتي تنشأ الأسرة في جو من الطمأنينة والاستقرار، جعل الإسلام الزواج يقوم على علاقة «المودة والرحمة» حتى يتهيأ للأطفال مناخ صحي لتربيتهم تربية سليمة، ليكونوا بعد ذلك عناصر قوية وفعالة في المجتمع.

ومن كل ما سبق يتضح لنا أن الإسلام لا يجوز اختزاله في بعض الجوانب، وإهمال الجوانب الأخرى، فالإسلام كلٌّ لا يتجزأ، ولا يكتمل إسلام المرء إلا باكتمال العناصر الأربعة

التي تشـتمل عليهـا، والتـي تتمثل فـي العقيدة والشـريعة والأخلاق والحضارة، إن الإسـلام ليس لحى تطول أو تقصر، وليـس جلبابًا له مواصفات معينة، وليس دروشـة فارغة، أو ذهولًا عن الدنيا وما فيها، وليس نقابًا يلغي كيان المرأة.

إن إدراكنا الواعي بمقاصد الشـريعة الإسـلامية من شأنه أن يحـرك المياه الراكدة، ويحيي الأمل في النفوس المحبطة، ويحفـز الهمم، ويوقـظ الغافلين ويدفع الكسـالى إلى العمل المثمر.

وتأكيدًا من الإسـلام على الاهتمام بالدنيا وإعمارها جعلت الشـريعة الإسـلامية حماية المال أحد مقاصدها، فحب المال وامتلاكـه نزعـة فطرية لا يجـوز مصادرتها، وهـذا حق من حقوق الإنسـان، وحماية هذا الحق أمر لا يجوز التفريط فيه، فالمال عصب الحياة، ولا يمكن أن تتقدم حياة الناس وتزدهر بدون المال.

(٣)

الاجتهاد والتقليد وفقه الواقع

من المأثورات النبوية التي يعرفها طلاب الكليات الدينية قصة معاذ بن جبل عندما أرسله النبي -عليه الصلاة والسلام- قاضيًا إلى اليمن، فقد سأله: «كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عرضَ لَكَ قَضَاءٌ؟»، قَالَ: بِكِتَابِ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟»، قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟» قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي، وَلَا آلُو -أي لا أقصر- فَأثنى الرَّسُولُ على معاذ، ويروى أنه قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ إلى ما يُرْضِي الله وَرسُولَه»[٥].

ومن المعروف أن النصوص التي يرجع إليها الفقهاء محدودة، ولكن وقائع الحياة ومستجدات كل عصر لا تنتهي، ومن أجل ذلك فإن إنزال النصوص على وقائع الحياة يتطلب عقلًا راجحًا وأفقًا واسعًا وفقهًا واعيًا، وقد أدرك علماء الأمة وفقهاؤها ذلك جيدًا منذ الصدر الأول للإسلام، وأعملوا عقولهم في فهم النصوص من جانب، وفي إنزالها على وقائع الحياة من جانب آخر، والتمكن من هذين الجانبين يعد أمرًا ضروريًّا للتوصل إلى رأي فقهي سديد.

وعلى هذا الأساس انفتح الباب واسعًا أمام المجتهدين الذين قاموا بمهمتهم على خير وجه، ونظرًا لأن العقول تتفاوت والأفهام تختلف في إدراكها وتصوراتها كان من الطبيعي أن يكون هناك

---

(٥) أخرجه أبو داود (٣٥٩٢) والترمذي (١٣٢٧) من حديث أناس من أصحاب معاذ رضي الله عنه.

اختلاف في الآراء بين المجتهدين على مر العصور، ومن هنا نشأت مذاهب الفقه الإسلامي المتعددة. وكان في ذلك تيسير على جمهور المسلمين، وانتشرت بينهم العبارة المشهورة: «اختلافهم رحمة».

وليس هناك حرج في أن يتخير المرء ما تطمئن إليه نفسه من الآراء المتعددة للفقهاء في المسألة الواحدة، فالأمر في النهاية متروك لهذا الاطمئنان القلبي الذي عبر عنه الرسول الكريم بقوله: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ»[٦].

وهكذا كان مبدأ الاجتهاد فتحًا جديدًا في تاريخ التشريع الإسلامي، وهذا ما جعل المفكر الإسلامي المعروف محمد إقبال يصف الاجتهاد بأنه مبدأ الحركة في الإسلام، وتشجيعًا من الإسلام على ممارسة الاجتهاد في المجتمع الإسلامي قرر النبي ﷺ أن المجتهد إذا اجتهد وأصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر[٧].

والاجتهاد في الإسلام مبدأ مستمر على مدى الأزمان، وليس خاصًّا بفترة زمنية معينة، والفقهاء في كل العصور مطالبون بالاجتهاد دون توقف، وإذا كان صاحب الشريعة قد فتح لنا باب الاجتهاد على مصراعيه فليس من حق أحد- كائنًا من كان- أن يغلق هذا الباب، فإغلاقه يُعد إغلاقًا لرحمة الله، وإغلاقًا للعقول،

---

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٠٠٦) والدارمي في سننه (٢٥٧٥) من حديث وابصة بن معبد -رضي الله عنه-، وقال النووي في الأربعين ص٨٨: «حديث حسن».

(٧) أخرجه البخاري (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص -رضي الله عنه-، بمعناه.

ومصـادرة على حقها في الفهم والتفكير، وهذا يعني ترك الأمور للتقليـد: تقليد الأسـلاف فيمـا توصلوا إليه من فهـم كان ملائمًا تمامًا لعصورهم وملبيًا لحاجاتهم.

ومـن الحقائق التي لا مراء فيها أن الحياة متجددة، فالتجديد سنة الحياة وقانون الوجود، ولا يوجد شيء يبقى على حاله، فحتى خلايا جسم الإنسـان تتجدد بصفة مستمرة، وقد أراد الإسلام لنا أن نمـارس الاجتهاد لنواكب متغيـرات كل عصر، ونحن نعلم أن الإمام الشافعي عندما جاء إلى مصر واستقر فيها بدأ يعيد النظر في الآراء والفتاوى التي قال بها حينما كان في بغداد؛ لأن الفتوى يجـب أن تراعي أعـراف كل قطر من الأقطار، وفـي هذا المعنى يقـول الإمام ابـن القيم في كتابه: إعلام الموقعيـن[٨]: «من أفتى الناس بمجرد النقول من الكتـب على اختلاف عرفهم وعوائدهم وأزمنتهم وأمكنتهم وأحوالهـم وقرائن أحوالهم؛ فقد ضل وأضل وكانت جنايته على الدين».

ولكننا - للأسـف الشـديد - تركنا الاجتهاد ولجأنا للتقليد في وقـت نحن أحوج ما نكون فيه إلـى الاجتهاد من أي وقت مضى، والملاحظ أنه حتى يومنا هذا نجد فقهاءنا حين يبحثون عن حل شـرعي لمشـكلة جديدة فإنهم يبحثون عن حـل لها لدى بعض المذاهـب الفقهيـة القديمة، وفي بطون الكتب التـي أُلِّف الكثير منها في عصور التراجع الحضاري للأمة الإسلامية.

ومنـذ أكثـر من قرن مـن الزمان عاب الشـيخ محمـد عبده على الفقهاء مسلكهم هذا وتمسكهم الحرفي بما جاء في هذه الكتب على

---

(٨) ٣ / ٦٦.

الرغـم من اختلاف ظـروف الزمان والمكان، وفي ذلـك يقول: «لقد جعل الفقهاء كتبهم هذه - على علاتها - أسـاس الدين، ولم يخجلوا مـن قولهم: إنه يجـب العمل بما فيها، وإن عارض الكتاب والسـنة؛ فانصرفـت الأذهان عن القـرآن والحديث، وانحصـرت أفكارهم في كتب الفقهاء على ما فيها من الاختلاف في الآراء والركاكة».

فهل يعقل أن تكون الحلول التي توصل إليها الفقهاء السابقون - مع احترامنا لاجتهاداتهم التي كانت مناسـبة لعصورهم - هي نفس الحلول لمشكلاتنا المعاصرة؟

إن الأمر الذي لا شـك فيه أن الفقهاء السـابقين - الذين أثروا الحياة الفقهية منذ قرون طويلة - لو قدر لهم أن يُبعثوا من جديد ويـروا ما طرأ على الحياة والأحياء فـي أزماننا من تطورات غير مسـبوقة لتغيرت بالقطع نظرتهم للأمـور، ولكانت لهم وجهات نظر متجـددة أكثر تطـورًا وأكثر فهمًا لمسـتجدات العصر من كثير من فقهائنا المعاصرين.

وسـأضرب بعـض الأمثلة على شـيوع التقليد غيـر المقبول لـدى الكثيرين من فقهائنا، إلى الحد الذي يصل إلى إلغاء عقولنا تمامًـا وإلغاء وظيفتها في التفكيـر؛ فقد بحث الفقهاء في الآونة الأخيرة قضية اشـتغال المرأة بالقضاء، وبدلًا من أن ينظروا أولًا فـي وضـع المرأة في المجتمـع المعاصر ومدى مـا وصلت إليه مـن ثقافة راقية وعقلية واسـعة وأفق رحب وتخصص دقيق في جميـع مجالات العلـوم والفنون، بدلًا من ذلك كلـه لجأ كثير من فقهائنـا الأجلاء إلـى البحث في بطون الكتب عمـا قاله أصحاب المذاهـب الفقهيـة الأربعـة في هـذه القضية، وتوصلـوا إلى أن

مذاهب الشافعية والمالكية والحنابلة لا يقرون تولي المرأة لأمور القضـاء بجميع درجاته، أما بعض الحنفية فقد أجازوا أن تتولى المـرأة القضاء في الأحوال الشـخصية والمدنية، ولكنها ليسـت مؤهلـة لتولي القضـاء في الجنايات، على الرغـم من عدم وجود نص قاطع يُعتَمد عليه يحرم المرأة من هذا الحق.

والأمـر الـذي لا شـك فيـه أن آراء الفقهـاء السـابقين كانت -وسـتظل - مجرد اجتهادات تخطئ وتصيب، ولم يَدَّع مؤسسو المذاهـب الفقهية أبدًا أن مـا يقولونه هو الحق المطلق؛ فقد قيل للإمـام أبي حنيفة: إن هذا الذي تفتي به هـو الحق الذي لا مراء فيـه؟ فرد قائـلًا: لا أدري، لعلـه الباطل الذي لا مـراء فيه، ومن المأثـور أيضًا عن الإمام الشـافعي قوله: «رَأْيُنـا صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب».

والسـؤال هـو: أيـن نحن من فقـه الواقع الغائـب عن أذهان الكثيـر من فقهائنـا؟ وأين نحن من فهم الواقـع الحالي للمرأة؟ وهـل المرأة اليوم هي نفس المرأة التي كانت في عهد مؤسسـي المذاهب الفقهية؟ وأين الاجتهاد المتجدد الذي فتح بابه واسـعًا صاحب الشـريعة؟ وأين نحن من فهم مقاصد الشـريعة وجوهر الدين؟ وإلى متى سنظل عالة على فقهائنا الأقدمين؟

وفي مثال آخر: دار البحث حول ختان الإناث الذي هو مجرد عـادة وليس عبادة، وأن ما ورد بشـأنه من أحاديث كلها ضعيفة لا تقيم حجة ولا يُعتد بها، ولكن أحد الشيوخ الأجلاء عندما بحث هذه القضية لجأ إلى البحث في ذلك عما قاله السـابقون وانتهى في ختام بحثه إلـى نتيجة مروعة مردودًا في هذا الصدد ما ذهب

إليــه بعض أصحــاب المذاهب الفقهية مــن رأي يقول: «لو اتفق أهل بلد على عدم ختان الإناث فعلى الإمام أن يقاتلهم على ذلك».

وقد تحدثت مع شــيخنا الجليل - رحمه الله وطيب ثراه- عن ضرورة الاجتهاد وعدم الوقوف عند ما قاله السابقون فكان رده: عندمــا نكون مثلهم في علمهم يحق لنــا الاجتهاد، وهذا أمر غير قائم في عصرنا.

وأتــرك الرد على ذلك للشــيخ محمد عبــده -رحمه الله- فمن رأيه أن الســبق في الزمان ليس آية من آيــات العرفان، ولا معليًا لعقــول على عقــول، فالســابق واللاحق يســتويان فــي التمييز والفطــرة، وهناك إمكانيات متوافرة أمــام اللاحق لم تكن متاحة لمــن ســبقه: «فاللاحق له من علم الأحوال الماضية، واســتعداده للنظــر فيهــا والانتفاع بما وصل إليه من آثارهــا في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه».

إن الاجتهاد في عصرنا الحاضر هو الفريضة الغائبة، وممارســة الاجتهــاد أصبحــت فــرض عين على كل مَــن لديه المؤهــلات لذلك، ولدينــا الكثير من الفقهاء المؤهلين للاجتهاد، ولكنهم في حاجة إلى الشــجاعة مرتين، كما يرى الشــيخ محمد عبده أيضًا: الشجاعة في رفع قيد التقليد، والشجاعة في وضع قيد العقل الإنساني - الذي هو ميزان الله في أرضه كمــا يقول الإمام أبو حامد الغزالي - للانطلاق إلــى آفاق التقدم والارتقــاء، ليس فقط على مســتوى الفكر الديني، بل على مســتوى الفكــر بصفة عامة، وعلى مســتوى تطوير حياتنا وتعمير دنيانا وإسعاد أجيالنا في الحاضر والمستقبل.

(٤)

الدين والفلسفة

روى لي أحد الزملاء من أســاتذة جامعــة الأزهر أنه كان منذ بضعة أعوام في زيــارة لبعض البلاد الأوروبية، وأراد أن يتعرف على أنشطة أحد المراكز الإســلامية، وهناك التقى بمدير المركز ودار بينهما حديث، سأل خلاله شيخ المركز الزميل عن التخصص الذي يقوم بتدريســه في جامعة الأزهر، وأجابه الزميل بأنه يقوم بتدريس علوم العقيدة والفلســفة، فرد مستنكرًا : «كيف تقوم يا شــيخ بتدريس الفلسفة؟ ألا تدري أن الفلسفة حرام وكفر» فقال له الزميــل بهدوء: أنا مندهش فقط من شــيء واحد؛ وهو: كيف أتيــت بهــذه العقلية إلى هــذا المكان؟ لماذا لم تظــل في بلادك، وهناك تقول ما تشاء؟

وليــس هذا الشــيخ وحده هو الــذي يحرم تدريس الفلســفة بوصفها كفرًا وإلحادًا؛ فهناك كثيرون من أمثاله لا يعرفون شيئًا عن الفلسفة، ولكنهم سمعوا أنها حرام، ودرجوا على ذلك.

والقضية في حقيقة الأمر قديمة قدم الفلســفة ذاتها، ويرجع رفض الفلســفة وعلومها إلى الجهل بها، والناس في العادة أعداء ما جهلوا.

والســؤال هو: هل صحيح أن الفلســفة حرام ومعادية للدين؟ ولتوضيــح هــذا الأمر نود أن نتعــرف على مجمــل قضايا الدين وقضايا الفلســفة، ومنطلقات كل منهما، وما إذا كانت الفلســفة تؤدي بالفعل إلى الكفر والإلحاد أم لا؟

إن هناك مقولة قديمة معروفة تعبر عن علاقة الدين بالفلسفة تقول: الفلسفة بنت الدين وأم العلوم، وهذا يعني أن الدين هو الأصل، وهو كذلك بالفعل؛ فهو قديم قدم البشرية ذاتها، أما الفلسفة؛ فإنه على الرغم من أن التفكير الفلسفي بصفة عامة بوصفه ممارسة فكرية لنشاط العقل الإنساني يعد مصاحبًا للإنسان منذ نشأته، فإنه يكاد يكون هناك إجماع لدى مؤرخي الفلسفة على أن تاريخ الفلسفة الحقيقي بوصفه نشاطًا عقليًّا منظمًا قد بدأ بالفلسفة اليونانية في القرن السادس قبل الميلاد.

والمتأمل في قضايا الدين يجد - على سبيل المثال - أن القرآن الكريم قد نبه العقول إلى ثلاث قضايا أساسية تعد مجالًا للتأمل العقلي، وجعلها تندرج في سلسلة واحدة تسلم كل حلقة فيها إلى ما بعدها.

وهذه القضايا هي: العالم، والإنسان، والله، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣)

فالآفاق تعني الكون؛ أي: العالم بأرضه وسمائه وما بينهما، أما الأنفس فإنها تعني الإنسان من بدايته إلى نهايته؛ الذي يُعد في حقيقة الأمر محور هذا الكون، أما القضية الثالثة فهي الحق، والحق هو الله تعالى.

وهذه القضايا التي وردت في الآية المشار إليها هي نفس قضايا الفلسفة التي شغلت بها ولا تزال، وإن تركز الاهتمام في بعض العصور على بعض الجوانب أو بعض التفريعات المنبثقة عن هذه القضايا الأساسية.

والملاحـظ أن ترتيب هذه القضايا من حيث ظهورها تاريخيًّا على المستوى الفلسفي هو نفس الترتيب الوارد في الآية الكريمة، وهو بالفعل التطور التاريخي؛ فالإنســان عندما يفتح عينيه يجد العالم من حوله بما فيه ومن فيه، فيتركز اهتمامه وينصب تأمله على هذا العالم، وبعد أن يفرغ المرء من تأمل هذا الآخر والتعرف عليه نجده يرتد ثانية إلى نفســه متأملًا ذاته في محاولة للتعرف عليهــا، وهذا التأمــل يؤدي به - في العادة - فــي نهاية المطاف إلى أصل الوجود، أي إلى الحق سبحانه، إنها إذن حلقات متصلة تسلم كل منها إلى الحلقة التي تليها - كما سبق أن أشرنا-.

وتاريــخ الفلســفة اليونانيــة يبين لنــا أن الســؤال الذي كان مطروحًا في بداية نشــأة هذه الفلســفة في القرن السادس قبل الميلاد كان ســؤالًا عــن الكون من حولنــا، وبالتحديد عن المادة التي يتكون منها العالم، وقــد كانت الإجابة حينذاك تنحصر في المــاء والهواء أو النار أو التــراب، أو كلها مجتمعة، وهذه الإجابة كانــت تعبر بطبيعة الحال على المســتوى الذي وصل إليه العلم حينذاك، ولكن العلــم الحديث قد تجاوز مرحلة العناصر الأربعة المشــار إليها، واكتشف عشــرات العناصر التي وصلت إلى أكثر من مئة واثني عشر عنصرًا.

وفي عصر ســقراط قيل عنه: إنه نقل الفلسفة من السماء إلى الأرض؛ بمعنى نقلها مــن البحث في أصل هذا الكون إلى التأمل في الإنسان ذاته، وقد تأثر سقراط في هذا التحول بعبارة وجدها على معبد «دلفي» في اليونان في ذلك الوقت تقول: أيها الإنسان اعرف نفسك.

وفي عصــر أفلاطــون وتلميــذه أرســطو أضافا إلــى هاتين القضيتيــن وهما: الكون والإنســان قضية ثالثة هــي الألوهية أو

الميتافيزيقيا، وبذلك اكتملت حلقات هذه السلسلة من القضايا الفلسفية، وهنا يتفق الدين مع الفلسفة في بحث هذه القضايا ولكن منطلقات الفلسفة في بحث هذه القضايا تختلف عن منطلقات الدين، وذلك راجع إلى أن الدين يعتمد في التعرف على هذه القضايا على الوحي الإلهي، أما الفلسفة فإنها تعتمد على العقل ومقولاته.

إن هناك إذن تشابكًا بين الدين والفلسفة، ولكنه في حقيقة الأمر لم يكن تناقضًا حادًّا يتعذر تجاوزه، وإن كانت بعض العصور اللاحقة قد عرفت بعض التيارات الفكرية والدينية التي جعلت الدين والفلسفة على طرفي نقيض، وهذا في حقيقته تفسير خاطئ للعقل وللدين على السواء.

إن الفلسفة إذا كانت تعتمد على العقل، والدين يعتمد على الوحي، فإن الدين والعقل من النعم الكبرى التي أنعم الله بها على الإنسان، فكيف يؤدي استخدام نعم الله إلى غضب الله؟

لقد خصص الفيلسوف العظيم ابن رشد كتيبًا عرض فيه هذه القضية بعنوان: «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» ومصطلح الحكمة مصطلح شائع في الثقافة العربية ويعني الفلسفة، والشريعة تعبير عن الدين؛ فابن رشد يعالج في هذا الكتيب موضوع علاقة الدين بالفلسفة.

ويصور ابن رشد في هذا الكتيب قوة العلاقة بين الفلسفة والدين بقوله: «الحكمة صاحبة الشريعة، والأخت الرضيعة، وهما المصطحبتان بالطبع والمتحابتان بالجوهر والغريزة»[٩].

ويقول أيضًا: «فإننا ـ معشر المسلمين ـ نعلم على القطع أنه

---

(٩) فصل المقال: ص٦٧.

لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشـرع، فالحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له»[١٠].

وعندما كان الشيخ محمد عبده طالبًا في الأزهر اتصل بجمال الدين الأفغاني وداوم على حضور دروسـه في الفلسـفة، فوشى الواشون إلى والده بأن ولده يدرس علوم الضلالات التي توقع في الشبهات، وتزلزل المعتقدات، فسافر الوالد من محافظة البحيرة ـ مديريـة البحيـرة حينذاك ـ إلى ولده في القاهرة فور سـماعه نبأ هذه «الكارثة»، ووصل إليه في السـاعة الثالثة صباحًا محذرًا منـذرًا بالويل والثبـور وعظائم الأمور، كما يروي الشـيخ محمد عبده في مقال له في صحيفة الأهرام عام ١٨٧٧م وقد هدَّأ الابن من ثورة أبيه، وطمأنه إلى أن ما يدرسـه أمور لا صلة لها بالكفر والضلال، فدراسة العلوم العقلية تعد ضرورة لا غنى عنها لأمور الدين والدنيا على السواء.

ولا تـزال هنـاك حتى يومنا هـذا عقول متحجـرة، لا تريد أن تـرى الحقائق في ضوء العقـل، وكأن هذا العقل رجس من عمل الشيطان، مع أن العقل: «قبس من نور الله»، واستخدامه فريضة إسـلامية، وعـدم اسـتخدامه يعد من أكبـر الذنـوب التي تؤدي بصاحبها إلى الهلاك، كما يقول القرآن الكريم حكاية عن الكفار يوم القيامة:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾

(الملك: ١٠، ١١)

---

(١٠) **فصل المقال**: ص٣١، ٣٢.

إن العقـل في حد ذاته والدين فـي جوهره لا يمكن أن يحدث بينهمـا صدام أو عـداء، فالعقل أثر من آثار اللـه، والدين كذلك، وآثار الله لا يناقض بعضها بعضًا، فقد خلق الله كل شـيء بقدرٍ وبحكمـة بالغة، ولكن الإنسـان ـ الذي منحه اللـه الحرية ـ هو الذي يسـيء أحيانًا اسـتخدام نعمة الله، ومـن هنا يحدث النزاع والشقاق، ولكن استخدام هذه النعم فيما خلقت من أجله لا يمكن أن يقود إلى تناقض أو تنافرٍ.

ويضـاف إلى ذلك أن قلةَ العلم والتسـرع في إصدار الأحكام يـؤدي فـي العادة إلـى أخطاء فـوق أخطـاء، ومن هنـا وجدنا الفيلسـوف الإنجليـزي المعروف فرنسـيس بيكـون يقول: «إن القليل من الفلسـفة قد يؤدي إلى الإلحاد، أمـا التعمق فيها فإنه يؤدي إلى الإيمان».

والفهم الصحيح للإسلام لا يمكن أن يؤدي إلى رفض الفلسفة، أو يحـرم التفلسـف الذي يعني اسـتخدام العقل الإنسـاني، من هنا حرص الفلاسـفة المسـلمون على التوفيق بين العقل والدين وإزالـة ما قد يبدو من تناقض بينهمـا، ولم يحدث نزاع أو تنافر بين الدين والفلسفة إلا في العصور التي شهدت تراجع الحضارة الإسـلامية، وهـذا التراجع الذي كان له أثره فـي التحجر العقلي وضيق الأفق الذي لا يزال ـ للأسـف الشديد ـ سائدًا لدى البعض في مجتمعاتنا الإسلامية، وتنوير العقول هو العلاج لهذه الفئات لإزالة رواسـب الجهل وانغلاق العقول والقضاء على ضيق الأفق ليحل محل ذلك العلم والانفتاح العقلي وسعة الأفق، وبذلك تتقدم الأمـم وترتقي الشـعوب وتشـق طريقها بثقة وأمـان إلى ما فيه خيرها ورفعة شـأنها، وما زلنا نحتفظ بالأمل في حدوث ذلك في وقت نراه قريبًا بإذن الله.

(٥)

الدين والخرافة

عندما توفي إبراهيم ابن النبي -عليه الصلاة والسلام- حزن عليه حزنًا شديدًا كأي أب فقد فلذة كبده، وبعد أن واراه التراب ذرفت عينه بالدموع، وحزن الصحابة لحزن الرسول، وقد تصادف في هذا الوقت أن كُسفت الشمس، وهذه ظاهرة كونية يعرفها الفلكيون منذ القدم، ولكن بعض الصحابة قال ـ بحسن نية بطبيعة الحال-: لقد كسفت الشمس مشاركة في الحزن على موت إبراهيم.

وعلى الرغم مما كان عليه النبي من شدة الحزن فإن ذلك لم يمنعه من التصدي لهذه الخرافة حتى لا تنتشر بين الناس، وقال في حسم قاطع: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ لا يَخْسِفَانِ وَلا يكسفان لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ»[١١].

لقد تذكرت ذلك عندما قرأت في الآونة الأخيرة عن الشجرة التي وجد الناس عليها لفظ الجلالة، واندفع الناس آلافًا مؤلفة قاصدين هذه الشجرة لرؤية المعجزة، وربما أيضًا للتبرك بها، وعجبت كما عجب غيري من الرافضين للخرافات من سرعة انتشار هذه الخرافة، ومن سرعة تصديق الناس لها.

وليست هذه هي المرة الأولى التي تروج فيها مثل هذه الشائعات، فبين الحين والآخر تنشر الصحف أخبارًا مماثلة عن العثور على ثمرة من ثمار الفاكهة أو غيرها مكتوب عليها

---

(١١) أخرجه البخاري (١٠٤٤) ومسلم (٩٠١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

لفظ الجلالة أو صيغة الشــهادة أو اسم محمدٍ، وغير ذلك من قصص وروايات خرافية تنتشــر بين الناس انتشــار النار في الهشيم.

وكل ذلك قد يكون من قبيل المصادفات التي لا تعني شيئًا، وقــد يكون بفعل فاعل، للترويج لها والتربح من ورائها ماديًّا أو معنويًّا، ولا شــك فــي أن تصديق جماهير الناس لمثل هذه الخرافات يدل ـ للأسف الشديد ـ على افتقاد العقلية الناقدة، وبالتالي الانســياق بسهولة وراء الشائعات والخرافات التي لا نصيب لها من الحقيقة والمصداقية.

والســؤال الملــح في هــذا الصدد هــو: هل الإســلام كدين فــي حاجة إلى مثل هــذه الخرافات للدلالة علــى صحته؟ إن الحقيقة التي لا شــك فيها أن زمن المعجزات قد انتهى بوفاة آخر نبي أرســله الله رحمــة للعالمين، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، من ظلمــات الجهل والضلال إلى نور الحق والعلم والمعرفــة، ومن هنــا نفهم لماذا بــدأ الوحــي القرآني بالأمر بالقــراءة، والإشــادة بالعلــم وبالقلم الذي هو وســيلة تدوين العلم، وبالإنسان حامل هذا العلم.

إن هذا الاهتمام ليس من قبيل المصادفة، وإنما هو اهتمام مقصــودٌ، وله دلالة كبيرة، فقــد أراد الله بذلك من بادئ الأمر أن يلفت نظر الناس إلى مفاتيح الحضارة قبل أن يحدثهم عن أي شيء آخر، فإذا اجتهدوا وتمكنوا من امتلاك هذه المفاتيح كان في وسعهم بناء الحضارة ـ التي هي مسئولية الإنسان ـ كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قول الله تعالى:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾

(هود: ٦١)

أي: طلب منكم عمارتها، وصنع الحضارة فيها.

أما الكرامة التي قد تظهر على يد ولي من أولياء الله الصالحين، فإن الولي الحقيقي لا يجوز له أن يفشي سر ما يظهر على يديه من كرامات، أو يعلن عنها، أو يتحدث بها، حتى لا يغتر الناس بها وتكون سببًا في انتشار الخرافات بينهم، وفي مثل هذه المواقف كان الإمام الغزالي يقول:

وكان ما كان مما لست أذكره

فظن خيرًا ولا تسأل عن الخبر

وما أكثر ما ينتشر بين عامة الناس من ألوان الدجل والشعوذات، وما يصنعه الدجالون من أحجبة وغيرها من وسائل لفك السحر وزيادة المحبة أو الكراهية أو طرد الجن الذي يتلبس -بزعمهم- بعض الأجسام، وغير ذلك من خرافات لا تزال للأسف الشديد ـ تجد لها سوقًا رائجة في أوساط العامة، وهذه كلها أمور يحاربها الدين ويأباها العلم ويرفضها العقل.

ومن هنا كان اهتمام الإسلام اهتمامًا بالغًا بالعقل وضرورة تمكينه من أداء دوره كاملًا في حياة الناس، كما اهتم بالعلم وجعله فريضة من فرائض الإسلام على كل مسلم ومسلمة، وجعل مداد العلماء مساويًا لدماء الشهداء، كما وصف العلماء بالمعنى الواسع لهذا المفهوم ـ بأنهم أخشى الناس لله؛ لأنهم الذين يدركون أكثر من غيرهم أسرار الخلق وجمال الكون وعظمة الخالق.

وإذا كان الإسلام يشجع العلم والعلماء فإنه يرفض الجهل وما يجره وراءه، من الجري وراء الخرافات والدجل والشعوذات، ولا يقر إلا ما يتفق مع العقل والمنطق، فهذا هو ما يليق بالإنسان خليفة الله في الأرض، الذي كلفه بعمارتها وصنع الحضارة فيها، ولا حضارة بدون علم، ولا علم بدون عقلٍ.

وقد أشار الشيخ محمد عبده إلى دور الإسلام الحاسم في مجال تحرير الفكر من أغلاله وقيوده، حيث: «أطلق سلطان العقل من كل ما كان يقيده، وخلصه من كل تقليد كان يستبعده، ورده إلى مملكته يقضي فيها بحكمه وحكمته».

وإذا كان هذا هو موقف الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان، وفي وقت كان العلم لا يزال يحبو فيه لكشف أسرار الكون، فما بالنا نحن الذين نعيش في عصر ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية، وأي عذرٍ لنا يحملُنا على الجري وراء الأوهام والتصديق بالخرافات؟

لقد آن الأوان لأن نكف عن هذا العبث الذي يريد البعض من ورائه شغل عامة الناس بما لا يفيد، والإبقاء عليهم في حالة من التخلف والجمود، ولا خلاص لأمتنا إلا بالعلم وحقائقه والعقل ومقرراته، مع التأكيد على أن ذلك لا يتعارض بحال من الأحوال مع تعاليم الدين الصحيحة؛ لأن الإسلام كما يقول الشيخ محمد عبده أيضًا: «لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي، والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري، فلا يدهشك بخارق العادة، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية».

(٦)

السنن الإلهية ومفاتيح الحضارة

تحت عنوان: «السـنن الإلهية وأثرها في نهضة الأمم» عقد قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة في شـهر أبريل ٢٠٠٨م مؤتمره السنوي الدولي الذي ناقش فيه الجوانب المختلفة لموضوع السنن الإلهية.

وقد يبدو للبعض أن هذا الموضوع لا يعدو أن يكون مجرد قضية دينية يناقشـها متخصصون في الدراسـات الإسلامية، ولكننا نعتقد أنه من أكثر الموضوعات أهمية بالنسبة لحاضر الأمـة الإسـلامية ومسـتقبلها، ولا نبالغ إذا قلنـا: إنه يعد من الموضوعات المصيرية للمجتمع الإسـلامي، فموضوع السنن الإلهية يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمفاتيح الحضارة التي نبه إليها القرآن الكريم منذ اللحظة الأولى.

فقد جـاء الأمر بالقراءة في أول الوحي مرتين، وهذا يعني قراءة الكتاب المسطور، وهو القرآن الكريم، الذي يلفت نظرنا باسـتمرار إلـى التدبر في آيات الله في الكون وفي الإنسـان، ويعنـي أيضًـا قراءة الكتـاب المفتوح، وهو الكـون المنظور للتعرف على القوانين التي تحكم سيره وتضبط حركته، وهي قوانين لا تتبدل ولا تتخلف.

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ (فاطر: ٤٣)

ومـن هنا يمكن القول بأن السـنن الإلهيـة تعني القوانين

الحاكمة لهذا الكـون، والتي قد يطلق عليها العلماء المعنيون بدراسـة الكـون مصطلح القوانيـن الطبيعيـة، وإن كان هذا المصطلح لا يستوعب في حقيقة الأمر ما تعنيه السنن الإلهية من ثراء يشمل الكون المادي والإنساني معًا.

وإذا كان اللـه قد خلق لنا هذا الكـون بما فيه من كائنات، وبمن فيه من البشـر، وجعل الإنسـان في الوقت نفسه خليفة له في الأرض، فإننا - نحن البشر- نتحمل المسئولية عن هذا الكون والتعمق في دراسـته وفهم أسـراره، حتى ندرك آيات الله في الكون وفي الإنسـان، ونكتشـف قوانين المادة وسنن الاجتماع البشـري، ونتعرف على السنن التاريخية، فمن شأن ذلك كله أن يجعلنا نفهم التاريخ ونعتبر بالدروس المستفادة منـه، كما يمهـد لنا السـبيل لفهم أسـباب قيـام الحضارات وسـقوطها، فليس هناك شـيء في هذا الكون يسير بطريقة عشوائية أو بمحض الصدفة:

﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ (يس: ٤٠)

ولا جدال في أن السبيل إلى الكشف عن هذه السنن الإلهية، والتعـرف علـى آيات الله فـي الكون وفي الإنسـان هو العلم بجميع أبعاده، وهذا يعني أن دراسة السنن الإلهية لا يمكن أن تتم بمعزل عن العلم، والتأمل في الكون وفي الإنسان طريقان يوصلان إلى معرفة الحق سبحانه مصدقًا لقوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ (فصلت: ٥٣)

وهـذه الآيـة الكريمة تشـير إلى ثلاث دوائـر معرفية، هي الكون والإنسان والله، وهي الموضوعات الفلسفية ذاتها التي حاول العقل الإنسـاني منذ بداية الخلـق -ولا يزال- التعرف عليها والتعمق في فهمها.

وإذا كانت سـنن الله في الكون تعني القوانين التي تحكم مسـار هـذا الكون، وسـنن الله في الإنسـان تعنـي القوانين التي تحكم الاجتماع البشـري، فإن التعرف على هذه السنن، والتطبيـق العملـي لها وفقًـا للمناهـج المقررة فـي العلوم المختلفة، هو السبيل إلى قيام الحضارات ونهضة الأمم وتقدم الشـعوب، أما الغفلة عن هذه السـنن والسـير وراء الخرافات والأوهـام، فإنه السـبيل المؤدي إلى تخلف الشـعوب وانهيار الحضارات.

وإذا كان اللـه قد علم آدم الأسـماء كلها قبل أن يهبطه إلى الأرض، فـإن معنى ذلك أنه أعطاه مفاتيح العلم التي هي في الوقـت ذاته مفاتيح الحضارة، وعليه -وعلى ذريته من بعده- أن يطرقـوا كل أبواب البحث ويسـلكوا السـبل الموصلة إلى الأهداف الحضارية التي كلف الله بها الإنسان في قوله تعالى:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾

(هود: ٦١)

أي: طلب منكم عمارتها وبناء الحضارة فيها.

ولا شـك في أن تقدير الإسـلام للعلم والعلماء من شأنه أن يدفع المسلمين إلى الاهتمام بالعلم ويحفزهم- كما كان الشأن مع أسـلافهم- إلى مواصلة اكتشاف السنن الإلهية في الكون

وفي الإنسان، والإسهام في بناء الحضارة الإنسانية وإرساء دعائم السلام والاستقرار في العالم الذي هو عالمنا جميعًا.

ومن الأمور التي نبه إليها القرآن الكريم، والتي لا ينبغي أن تغيب عن الأذهان، أن السبيل إلى سبر أغوار هذا الكون والتعرف على أسراره لن يكون متاحًا إلا لهؤلاء الذين يبذلون أقصى طاقاتهم من أجل اكتشاف القوانين الحاكمة لهذا الكون وتوظيفها في مصلحة الإنسان، بصرف النظر عن الانتماءات العقدية أو العرقية لهؤلاء الباحثين، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: ١٣)

وختام هذه الآية واضح في أن الأقوام التي تفكر وتتبع سبيل العقل وتهتدي بنور العلم هي التي ستصل إلى تحقيق الأهداف المنشودة، فالله لا يمنح أحدًا من خلقه هذا الفضل مجانًا، والواقع يؤكد لنا ذلك بما لا يدع مجالًا للشك، فالذي يتأمل عالمنا المعاصر الذي يشتمل على شعوب متقدمة وأخرى متخلفة سيكتشف بسهولة هذه الحقيقة، فمن يفكر ويسعى ويجتهد ويبحث وينقب، سيصل حتمًا إلى تحقيق ما يريد، فتلك سنة الله في خلقه.

والواقع يبين لنا أيضًا أن المسلمين عندما غفلوا عن هذه الحقيقة وركنوا إلى التواكل والتقليل من شأن العلم، دارت عليهم الدائرة وتراجعوا حضاريًّا وتوقفوا، وسار غيرهم في طريق العلم دون توقف، ومن هنا فإننا نرى كل يوم شيئًا جديدًا

يكتشفه هؤلاء، وأصبحنا نحن المسلمين- للأسف الشديد- عالة عليهم، وبمعنى آخر أصبحنا زبائن دائمين في «سوبر ماركت» الآخرين نستهلك كثيرًا ولا ننتج شيئًا إلا أقل القليل.

وظـن الكثيرون خطـأ أن العلم في الإسـلام مقصور على العلم الدينـي فقط، وعلى الرغم من هـذا الفهم الخاطئ فإن العلم الديني قد تجمد هو الآخر في عقول هؤلاء الواهمين على نحـو أفقدهم الوعي، وشـل قواهم الفكرية عـن فهم ما يدور حولهم في هذا الوجود.

وقد اتخذ خصوم الإسـلام من ذلك دليلًا على أن التمسـك بالإسلام يعني الجمود والتخلف والرجعية، وقد قال بذلك كثير من المستشرقين، ومن بينهم المستشرق المعروف: «إرنست رينان» في مناظرته الشـهيرة مع جمال الدين الأفغاني، ومن بيـن ما قاله في هـذا الصدد: «إن ما يميز المسـلم في الواقع بشـكل جوهري هو كراهيته للعلم، والاقتنـاع بأن البحث فيه باطل، ولا جدوى منه، ومدعاة للكفر».

ولا تـزال مثـل هـذه الدعـاوى الباطلة تتردد في وسـائل الإعلام الدولية، وفي كتابات كثيرين في الغرب ممن يعتبرون أنفسهم خبراء في شئون الإسلام والمسلمين.

والسـؤال الـذي يمكن أن يُطـرح في هذا الصـدد هو: هل صحيح أن التزام المسـلمين بالإسلام هو الذي يعوق تقدمهم العلمـي؟ وإذا كان الأمر كذلك فأي إسـلام هـذا الذي يجذب المسـلمين إلى الـوراء في الوقت الذي يسـرع فيـه الآخرون الخطـى؟ وهل يطبـق المسـلمون بالفعل مثاليات الإسـلام،

وبالتالي تحجبهم هذه المثاليات عن أي تقدم علمي؟

إن الحقيقة المرة هي أن ما يقرب من نصف المسلمين في العالم أميون لا يقرءون ولا يكتبون، فهل يتفق هذا مع مثاليات الإسلام؟ لقد كان النبي يفرج عن الأسير من غزوة بدر إذا علَّم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة[١٢]، ومن ناحية أخرى فإن الإسلام دين يعلي من شأن العلم إلى درجة تجعل منه فريضة دينية على كل مسلم ومسلمة[١٣]، كما يحث على العمل ويجعل الإيمان الصادق مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالعمل الصالح، كما يتضح ذلك في عشرات الآيات في القرآن الكريم.

فهل المسلمون ملتزمون بهذه المثاليات، ولذلك أدت بهم إلى التخلف العلمي؟

إن الأمر على العكس من ذلك تمامًا، فالإسلام لم يكن في يوم من الأيام عدوًّا للعلم، وإنما كان وسيظل عدوًّا لكل تخلف علمي، وحل مشكلة التخلف لا تكون إلا بالسير قدمًا في طريق البحث العلمي الذي يؤدي إلى تطوير الحياة بالعلم ومنجزاته.

إن الأمر الذي يؤسف له أن يخرج من بين صفوف المسلمين مَن يهاجم العلم والعلماء والبحث العلمي، وينكر الحقائق العلمية التي توصل إليها العلم معتقدًا أنه بذلك يدافع عن

---

(١٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢١٦)، والحاكم في المستدرك: ١٤٠/٢، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الحاكم: «حديث صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.

(١٣) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم». وحسنه البغوي في مصابيح السنة: ١٧٢/١.

الإســلام، والواقع أنه يسيء إلى الإســلام أبلغ إساءة، ويعطي لخصوم الإســلام المبرر للزعم بعداء الإســلام للعلم والعلماء، وهذا شــأن الأصدقاء الجهال الذين يؤذون الإســلام بجهلهم، والأذية من الصديق هي أشــد أذية من العدو، كما يشــير ابن رشد إلى ذلك أيضًا في سياق مماثل لما نحن بصدده الآن.

وهؤلاء الأصدقاء الجهال يشــكلون كارثة بالنسبة للإسلام، فهــم لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا، وبدلًا من أن يســتروا جهلهــم يقومون بإعلانه علــى الملأ، وليتهــم يكتفون بذلك، ولكنهم يعلنون أن ما يقولونه هو الإسلام، والإسلام بريء في واقع الأمر مما يقولون.

وإذا كانت هذه الأفهام الفاسدة تقف دائمًا عقبة في طريق العلم والبحث العلمي فإنها بذلك تعطي للآخرين ذريعة لاتهام الإســلام كدين بأنه مناقض للعلم ومضاد للبحث العلمي، وقد حدث ذلك بالفعل في الماضي، ويحدث في الحاضر أيضًا.

ومنذ فترة بعيدة سعدت بصحبة الشيخ/ محمد الغزالي- رحمه الله- لسنوات في جامعة قطر، وقد أطلعني ذات مرة -وهو في غاية الأسف والحزن- على كتاب كان قد صدر حينذاك في بعض الأقطار العربية، يزعم فيه مؤلفه -المحســوب على العلم الديني- أنه أتى في هــذا الكتاب بثمانية وأربعين دليلًا من القرآن على أن الأرض لا تدور.

والــذي يقــرأ هذا الكتــاب وأمثاله مــن الكتب التي تنشــر الخرافات بين الناس يعذر المستشرق الفرنسي رينان وغيره من المستشرقين الذي يزعمون أن الإسلام عدو للعلم وللبحث

العلمي، ولا تزال مثل هذه الأفكار الخاطئة تنشر على الناس باسم الإسلام المظلوم من أتباعه قبل خصومه.

ولنتأمل في هذا الصدد قول الله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ (الإسراء: ١٢)

فتعاقب الليل والنهار من آيات الله، وقد أراد الله لنا بذلك أن تتهيأ أمامنا الفرصة لنبتغي فضلًا من ربنا، أي: لنسعى في الأرض، نطلب الرزق من فضل الله، وفي الوقت نفسه لنعلم عدد السنين والحساب.

وقد وردت الإشارة إلى العلم بالسنين والحساب بالألفاظ ذاتها في الآية الخامسة من سورة يونس:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ (يونس: ٥)

والتعبير هاهنا بقوله: ﴿لِتَعْلَمُوا۟﴾

يشير إلى علم لا مجال فيه للظن أو التخمين، ويترتب عليه بطبيعة الحال انتظام أمور الناس في دينهم ودنياهم، ومن ذلك على سبيل المثال معرفة مواقيت العبادات، كالصلاة والصيام والحج وغير ذلك من الأمور الدنيوية المتصلة بمصائر الأمم والشعوب في تطورها وتقدمها وبنيانها الحضاري.

وعلى الرغم من هذا البيان القرآني الواضح، فإن هناك من يتجاهل ذلك الذي تشير إليه هاتان الآيتان اللتان تدلان

على سـنن إلهية تدعونا إلى العلم بهـذا الكون، وتوظيف هذا العلم في خدمة الحياة والأحياء، ويتمسك هؤلاء بحديث يقول: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ»[١٤]، ويقع المسلمون سنويًّا في حرج التعرف على بداية شـهر الصوم من كل عام لرفض الكثيرين منهم الاعتراف بالحسابات الفلكية الدقيقة.

والحق أن الحديث المشـار إليه كان مجـرد وصف للحال الـذي كان عليه المسـلمون آنذاك، ولم يكن أبـدًا دعوة للأمية وعدم الأخذ بأسباب العلم، وفضلًا عن ذلك فإن الحديث -مهما كانـت درجة صحتـه- لا يمكن أن يكـون حاكمًا على صريح القرآن، وإنما الأمر على العكس من ذلك تمامًا.

إن الإسـلام- الذي حرر العقل من كل أشـكال التقليد- قد أفسـح المجال أمام العلم والبحث العلمي إلـى أبعد الحدود، ولم يضـع حـدودًا ولا قيودًا أمـام البحث العلمـي، والحدود والقيـود والعقبات مـن صنع «الأصدقاء الجهـال»، الذين هم أضر بالإسلام من الخصوم العقلاء، وصنيعهم مع الإسلام مثل صنيع الدبة التي قتلت صاحبها بحجر كبير ألقته على وجهه بنية إبعاد ذبابة تزعجه في نومه.

وهؤلاء هم سـبب بلاء الأمة الإسلامية في العصر الحاضر؛ بما يصدر عنهم من فتاوى تُسـيء إلى الدين أبلغ إساءة، وما يشهده عالمنا المعاصر من اتهامات للإسـلام بالإرهـاب والدموية وعداء للعلـم وكراهية للتقدم العلمي؛ يرجع إلى هؤلاء، ولا خلاص للأمة الإسلامية من تخلفها إلا باستقلال الفكر وحرية البحث والاجتهاد.

---

(١٤) أخرجه البخاري (١٩١٣) ومسلم (١٠٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ومـن الحقائق المقررة أن العلم يعد قسـمة مشـتركة بين الناس جميعًا، ومن هنا فإن العلوم الكونية ليس فيها ما يمكن أن نطلق عليه علمًا إسلاميًّا أو غير إسلامي؛ فالعلم لا وطن له ولا جنسـية ولا ديانة، وعلم الكيمياء مثلًا لدى المسـلمين هو نفسه لدى المسيحيين أو اليهود أو البوذيين.

ومن نافلة القول أن نؤكد هنا أن كل ما يتعلق بالدين يعد من الخصوصيات لهذه الحضارة أو تلك، أما ما هو قسـمة مشتركة بيـن كل بني البشـر فلا فـرق على الإطـلاق، ومـن المأثورات الإسـلامية في هذا الصـدد: «اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَـوْ بِالصِّين»[١٥] أي: حتـى ولو كان فـي أبعد مكان في الدنيـا، أو بمعنى آخر: حتى ولـو كان في يد مـن لا يدينون بدينكم، ومـن البديهي أن العلم الـذي نطلبه ولو في الصين لا صلة لـه بالعلم الديني، وإنما هو العلـم بجميع أبعـاده، إنه العلم الذي يخـدم الحياة التي نعيش فيها، و«الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها» - كما جاء في الحديث النبوي الشريف[١٦].

وقـد بين لنا القـرآن الكريم أن العلماء -بالمعنى الواسـع للكلمة - هم أخشـى الناس لله؛ لأنهم الذين يسـتطيعون فهم سنن الله في الكون، وإدراك روعة الخلق وجلال الخالق، ومن

---

(١٥) أخرجه البزار في مسنده (٩٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٥٤٣) من حديث أنس بن مالك رضـي الله عنه. وقال البيهقي حديث متنه مشهور، وإسناده ضعيف، وقد روي من أوجه كلها ضعيفة.

(١٦) أخرجـه الترمـذي (٢٦٨٧) وابن ماجه (٤١٦٩) من حديث أبي هريرة -رضـي الله عنـه-، بنحوه، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المخزومي يضعف في الحديث من قبل حفظه».

هنا اعتبر النبي ﷺ مداد العلماء مساويًا لدماء الشهداء[١٧].

إن المشكلة -إذن - ليست بين الإسلام والعلم، وإنما هي مشكلة فئة من الجامدين والجاهلين تريد أن تفسر الدين على هواها، وتريد أن ترغم الدين على الأخذ برؤاها المتخلفة وتصوراتها المتحجرة، ولا بد من التحرر من أسر هذه العقليات والنظر إلى الأمور نظرة استقلالية بعيدة عن أي تقليد، «فلا خلاص إلا في الاستقلال»؛ كما كان يقول الإمام الغزالي[١٨].

إننا في حاجة إلى عقليات متحررة من الأوهام والخرافات والدجل والشعوذات، ومتحررة من الجهل والتقليد، عقليات تزن كل شيء بميزان العقل قبل أن تسلم به؛ فالآفة التي تشد المسلمين إلى التخلف والجهل -كما يقول الشيخ محمد عبده - تتمثل في التقليد الأعمى وفي مصادر التثقيف السيئة، ويحضرني في هذا المقام العبارة التي ختم بها الإمام الغزالي كتابه: «ميزان العمل»؛ حيث يقول: «ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشككك في اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب - أي: للبحث - فناهيك به نفعًا؛ فالشكوك هي الموصلة إلى الحقائق؛ فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال»[١٩].

---

(١٧) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٥٣) من حديث أبي الدرداء -رضي الله عنه -، وضعف إسناده العراقي في تخريج الأخبار: ص١٣.

(١٨) في «ميزان العمل»: ٤٠٩.

(١٩) ميزان العمل: ص٤٠٩.

ومـن المعلـوم أن البحث العلمي في حاجـة إلى مثل هذه الشـكوك؛ لأنـه لا يجوز أن يسـلم الباحث بشـيء إلا ما تثبته التجـارب، وتقـره القوانين العلمية بأسـانيد قويـة وبراهين قاطعة، ولسـت أعدو قول الحق إذا قلت: إن الجهاد الحقيقي أمام المسـلمين فـي عالم اليوم، الذي يعـد فريضة غائبة في عالمنا الإسـلامي؛ هـو الجهاد في مجال العلـم والتنافس في ميدان البحـث العلمي، أما جهـاد الحناجر الـذي يملأ الدنيا ضجيجًا فإنه لن يفيد الإسلام والمسلمين في شيء.

إن سُـنن اللـه فـي الكون وفـي الإنسـان تدعونـا -نحن المسـلمين - أن ننهض بعد طول رُقاد، ونسـتيقظ بعد طول سُـبات، ونُزيل عـن أعيننا وعقولنا الغشـاوة التي حجبت عنا الرؤية السـليمة دهورًا طويلة، ولن تتبدل أحوال المسلمين إلا طبقًا لقانون التغيير الإلهي القائل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

(الرعد: ١١)

فتلك سـنة الله في خلقه التي لن تجد لها تبديلًا، ولن تجد لها تحويلًا.

(٧)

الإرادة الإنسانية والقضاء والقدر

لقـد خلق الله الإنســان وزوده بكل القـوى والملكات التي تساعده على أداء دوره المنوط به في هذه الحياة؛ وهو إعمار الأرض وصنع الحضارة فيها ونشر الأمن والسلام في أرجائها.

وعلى رأس الملكات التي أنعم الله بها على الإنســان نعمة العقل الذي به يميز الإنسان الخير من الشر والنافع من الضار والحق من الباطل، وبدون العقل أو بدون اســتخدامه لا يمكن للإنســان أداء أي دور يفيـد الحياة والأحيـاء، ولكن العقل إذا كان يقوم بدور المشــرع والمخطط لحياة الإنســان فإنه في حاجة إلى أداة تكون مهمتها التنفيذ لما يراه العقل الإنســاني محققًا لسعادة الإنسان.

وهــذه الأداة هــي الإرادة الإنســانية التــي تقــوم بالمهمة التنفيذية، ولكن الإرادة الإنسانية ليست مجرد أداة، وإنما هي إرادة حــرة في مقدورها أن تســتجيب لنداء العقل الإنســاني وفــي مقدورها أيضًا أن ترفــض وتفعل نقيض ما يريد، وهذا أمر واقع يســتطيع كل إنســان أن يلحظه في نفســه، فالعقل لا يعمل وحده في تسيير ســلوك الناس، فهناك بالإضافة إلى ذلك رغبات متنوعة وشهوات وأهواء تحاول فرض نفسها على توجهات الناس، فالصراع مستمر بينها وبين العقل.

وما دامت الإرادة حرة في أن تفعل وألا تفعل؛ فإن الســؤال المهــم فــي هذا الصــدد هو: هل لحريــة الإرادة حــدود تقف

عندها؟ والسؤال الأهم هو: ما هي طبيعة العلاقة بين الإرادة الإنسانية والإرادة الإلهية أو القضاء والقدر؟

إنه مما لا شك فيه أن هذه مشكلة معقدة شغلت الفكر الإنساني بصفة عامة، والفكر الديني بصفة خاصة، منذ فجر التاريخ، ولا تزال تشغل أذهان الناس من مختلف الأديان.

ويذهب كثيرون ممن يريدون أن يريحوا أنفسهم من عناء البحث والتفكير في هذه القضية إلى أن الإرادة الإنسانية ليست حرة؛ فالإرادة الإلهية مطلقة ولا تحدها حدود، وقد وضع الله لهذا الكون كله بما فيه الإنسان خطة سيره وبرنامج عمله، وهذا يعني أن الإنسان مجبر على السير في إطار الخطة الإلهية، ولا يستطيع أن يحيد عنها أو يتصرف تصرفًا يخالفها، إنه -كما يزعمون - كالريشة في مهب الريح، تميلها حيث تميل.

فكل شيء مقدر ومكتوب على البشر، ولا حيلة لهم في رده أو مواجهته، ويتردد هذا الاتجاه حتى في الأغاني الشعبية مثل «المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين» وما شابه ذلك، والذين اتجهوا هذا الاتجاه يُطْلَقُ عليهم مصطلح أصحاب عقيدة الجبر أو الجبريون: فالإنسان لا حول له ولا قوة، وكل شيء قدره الله في الأزل، ولا قِبَلَ لأحد بمخالفة القضاء والقدر، ألم يقل القرآن الكريم:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾

(الإنسان: ٣٠)

ومن الواضح أن هذا الاتجاه ينبني على فهم خاطئ للقضاء

والقدر، ومن شـأنه أن يشـل حركة الإنسـان ويعطل طاقاته البدنية والعقلية، ويجعله يركن إلى التواكل في كل شيء.

وحقيقـة الأمر أننا نشـعر في نفوسـنا بما لنـا من حرية الاختيـار في أقوالنا وأفعالنا، ولولا أن إرادة الإنسـان حرة في اختيار الخير أو الشر لكانت التكاليف الأخلاقية والأمر والنهي ضربًـا من العبث، ولما كان هنـاك معنى لما جاءت به الأديان من الثواب والعقاب والمدح والذم، فالحرية شرط أساسي لكل الأفعـال الأخلاقية، وما يتعلق بهـا من مقاصد ونوايا ومواقف إرادية.

ولا يمكن أن نتحدث عن أخلاقيات إلا إذا كان الإنسان يتمتع بالحريـة التي تجعله قـادرًا على عمل الخير وترك الشـر، أو العكس، ولو لم نكن أحرارًا في الاختيار بين الخير والشر فلا يمكن أن نحاسب على تصرفاتنا، كما لا يمكن أن نلام عليها.

وعلى كل حال فإن الحرية -والحرية الواعية - هي الأساس الـذي ترتكز عليه الأخلاق، ولو لم تكـن هناك حرية لما أمكن أبـدًا تحديد المسـئولية، ولما كان هناك فعـل يمكن أن نقول عنه: إنه فعل أخلاقي، وفعل آخر نصفه بأنه فعل غير أخلاقي.

ولا نريـد هنا أن ندخل في تفاصيل الخلاف العريض الذي ثـار بين أصحـاب الجبر وأصحـاب الاختيـار، ولكننا نود أن نلفت النظر فحسـب إلى أن الله -سـبحانه وتعالى - قد خلق نوعين من المخلوقات؛ أحدهما مسـخر لا إرادة له ولا اختيار، وليس أمامـه إلا الطاعة والامتثال، ويتمثـل هذا النوع في كل مخلوقات الله عدا الإنسان.

أما النوع الثاني وهو الإنسان فإنه مخلوق مكلف، والتكليف مسـئولية، والمسـئولية لا تقوم إلا على دعامة من الحرية في الفعـل أو الترك حتى فـي أمور العقيدة - كمـا يقول القرآن الكريم:

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

(الكهف: ٢٩)

ويترتـب على ذلـك بطبيعة الحال قضية الثـواب والعقاب التي يشير إليها القرآن الكريم في قوله:

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾

(فصلت: ٤٦)

صحيح أن الله يعلم كل ما سـيقوم به كل فرد من خير أو شر ومن إيمان أو كفر، ولكن علم الله هنا ليس علم إكراه على الفعل أو الترك، وإنما هو علم أزلي كاشف بما سيقع من هذا الشـخص أو ذاك، أما وقوع الفعل نفسـه أو عدم وقوعه، فهو في أساسه من صميم حرية الشخص نفسه، وليس في هذا ما يطعن في القضاء والقدر من قريب أو من بعيد، فكل شيء قد قدره الله في الأزل، وهذا أمر لا جدال فيه، ولكن خَلْقُ الإنسان بـإرادة حرة هـو أيضًا من بين ما قدره اللـه في الأزل، وهذه نقطة فـي منتهى الأهمية لإدراك عدم وجـود أي تناقض بين القضاء والقدر وحرية الإرادة الإنسانية.

في واقـع حياتنـا العمليـة نعتـرف جميعًا بأثـر التربية والتثقيف والتهذيب في تغيير سـلوك الإنسان، كما أننا نضع قوانين ونعاقب المسـيء ونكافئ المحسن، فإذا كان الأمر هو

أن الإنســان مجبر لا حريــة لــه، ولا إرادة، ولا اختيار، فليس هنــاك - إذن - أي داعٍ للتربية والتهذيب أو الوعظ والإرشــاد، أو وضع القوانين أو الثواب والعقاب؛ لأن ذلك كله يفترض أن هناك ذاتًا لها إرادة حرة، وأنها قادرة على الاســتجابة أو عدم الاستجابة.

والقــول بالجبــر فيه ســد لجميع منافــذ الأمل فــي حياة الإنسان، وبدون الأمل لا يستطيع الإنسان أن يتقدم في حياته أو يتطور في معارفه، بل إنه ســيجمد ويتقوقع، وبذلك تقف الحياة، ويقنع الناس بالركون إلى التواكل والاستسلام.

وقد أعطانا الدين الأمل، وغرس في نفوسنا الثقة في القدرة علــى التغيير إلى الأفضل، مبينًا لنا أن هذا التغيير لن يســقط علينا من الســماء، وإنما يتعلــق أولًا بإرادتنا ذاتها التي تملك هذا التغيير، وهل هناك في هذا الصدد أصدق من هذا القانون الإلهي الثابت:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

(الرعد: ١١)

فقد أســند الله -ســبحانه وتعالى - التغيير للإنسان، كما أسند إليه تزكية النفس أو إفسادها في قوله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾

(الشمس: ٩، ١٠)

وقــد كان الشــيخ محمد عبده من أشــد المحاربين لعقيدة الجبر؛ لأنها تقوم في واقع الأمر على إلغاء شــخصية الإنسان وهي عقيدة تتســاوى في ذلك مع التقليد الممقوت الذي يلغي

عقل الإنسان؛ فالجبري والمقلد -كلاهما- تقوم حياته على الصدفة، وكلاهما يتهاون في ترك مجال الحياة لغيره، في حين أن الإسلام يريد أن يكون المؤمن لبنة إيجابية في بناء المجتمع لا يتواكل ولا يكون سلبيًّا؛ فالسلبيون أجدر بهم - كما يقول الشيخ-: «أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم».

ويصحح الشيخ محمد عبده الفكرة الخاطئة عن القضاء والقدر قائلًا: «الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجرأة والإقدام وخلق الشجاعة والبسالة»؛ ومن هنا فإن ربط عقيدة الجبر بالقضاء والقدر يعد من قبيل الربط بين النقيضين.

إن الأمر الذي ينبغي أن يوضع في الاعتبار عند بحث هذه القضايا الشائكة أنه لا يجوز أن نقتطع بعض آيات من القرآن الكريم من سياقها لنبرهن بها على صحة هذا الرأي أو ذاك وإنما ينبغي أن نفهم كل الآيات التي تتحدث في الموضوع الواحد لندرك أبعادها ونعي ما ترمي إليه، بالإضافة إلى تحكيم عقولنا في فهم النصوص حتى لا نضل السبيل، وقد حذرنا القرآن الكريم من أن نؤمن ببعض الآيات ونتجاهل الآيات الأخرى في قوله:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾
(البقرة: ٨٥)

(٨)

قل إنما أنا بشر مثلكم

منذ أكثر من قرن من الزمان حذر الشـيخ محمد عبده من المصادر السـيئة للتثقيف، التي تـؤذي العقول بما تنقله من جراثيـم فكريـة وأوبئة ثقافيـة؛ تهدم العقـول وتقضي على صحـة الفكـر والثقافـة، ومن الأمثلـة على ذلـك - كما يقول الشيخ- كتب الأكاذيب الصرفة، وكتب الخرافات، وأمثالها من كتب تخدر العقل وتشل فاعليته.

وقـد خاض العديد من المصلحين وقادة التنوير في بلادنا في الماضي والحاضر معارك من أجل تنوير العقول وتثقيف الأذهـان، حتى تنهض الأمة وتتفـرغ للبناء والتعمير، وتخطو خطوات ملموسـة في مجال التقدم والرقي، وتسابق الآخرين في التجديد المتواصل للمجتمع والنهوض بالمواطنين.

ولكـن الطريـق لم يكن دائمًـا معبَّدًا أو مفروشًـا بالورود والرياحين؛ فبين الحين والآخر كانت تظهر في الطريق بعض الأشـواك التي تعطل مسـيرة التقـدم وتشـد المواطنين إلى التخلف وتنشر بينهم ظلام الجهل بدلًا من نور العلم.

والإسلام -كما هو معروف - دين العقل والفطرة السليمة، ولا يعقـل أن تشـتمل تعاليمـه السـامية على شـيء يصادم العقل والفطـرة والذوق العام، وكتب التراث فيها الغث وفيها السـمين، فيها المقبول وفيها المرفـوض، وليس من مصلحة الإسلام والمسلمين أن نعيد نشر ما تشتمل عليه من غثاء.

وقد أدرك ذلك الثقات من علماء المسلمين على مدار التاريخ الإسلامي، وكانوا يعملون عقولهم فيما ينقل عن الأسلاف، ولا يأخذون أي شيء على علاته إلا بعد فحصه واختبار مدى صحته واتفاقه مع العقل والمنطق، ووضعوا في ذلك القواعد التي على أساسها يقبلون ما يقبلون، ويرفضون ما يرفضون، حتى إذا كان الأمر يتعلق بنص ديني يوحي ظاهره بمخالفة العقل فإنه لا يجوز قبول هذا الظاهر وإنما يجب تأويله حتى يتفق مع العقل، وفي ذلك يقول الإمام الغزالي: «فإن لنا معيارًا في التأويل، وهو أن ما دل نظر العقل ودليله على بطلان ظاهره علمنا ضرورة أن المراد غير ذلك»، وفي السياق ذاته يقول الشيخ محمد عبده[٢٠]: «اتفق أهل الملة الإسلامية، إلا قليلًا -ممن لا ينظر إليه-، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل»، وهذا ما كان يفعله أيضًا كبار علمائنا ومفكرينا على مدار التاريخ.

والمفروض أنه كلما تقدم بنا الزمن ازداد الفكر استنارة وفهمًا وفقهًا، واتسعت أمامه مساحة العلم النافع وتقلصت مساحة الجهل والجمود والانغلاق، والمفروض أيضا أنه يجب على المتحدثين منا باسم الدين أن يدركوا أننا نعيش اليوم في عصر ثورة المعلومات والاتصالات والطفرة التكنولوجية، وأن الدنيا قد تغيرت وأن الأحوال قد تبدلت، وأنه لم يعد مقبولًا ولا معقولًا حشو أذهان جماهير المسلمين بالغثاء من القول والسقيم من الفكر، والباطل من الأقاويل التي ما أنزل الله بها من سلطان.

إنه لا جدال في أن النبي يعد مثلًا أعلى في أخلاقه وسلوكه؛

(٢٠) في «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية»: ٧٠.

فقــد أدبه ربه فأحســن تأديبه - كما جاء فــي حديثه هو عن نفسه [٢١] - ومن هنا جعله الله أسوة حسنة للمسلمين جميعًا في قوله تعالى:

﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(الأحزاب: ٢١)

ولا جــدال أيضًا في أنه قد أدى الرســالة، وبلغ الأمانة على أكمل وجه؛ فهو الإنسان الكامل، وهو المثل الأعلى، وهو القمة التــي لا يرقى إليها البشــر، أو كما يقول الإمام البوصيري في مدحه:

«يا سماء ما طاولتها سماء».

ولكــن اللــه أراد له أن يكــون -على الرغم مــن ذلك كله - إنســانًا، وأن يظل بشــرًا يعيــش بين الناس، يــأكل كما يأكل الناس، ويشرب كما يشربون، ويتزوج وينجب البنين والبنات، وتلك هي سنتهﷺ، وكما يقول في ذلك: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِني»[٢٢].

وقد ظل الرســول بشــرًا منذ مولده حتى وفاتهﷺ تجري عليه قوانين البشــر، ولا يجوز إخراجه من نطاق البشرية إلى نطاق آخر؛ فهذا لم يُورِده الله -سبحانه - في القرآن الكريم، ولم يرد عن الرسول نفسه شيء من ذلك.

---

(٢١) أخرجه الســمعاني في أدب الإملاء: ص١، من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه-، وقال الزركشــي في اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشــهورة: ص١٦٠: «معناه صحيح أيضًا لكنه لم يأت من طريق يصح».

(٢٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس رضي الله عنه، مطولاً.

ونحن نسيء إلى هذه الشخصية العظيمة أبلغ إساءة إذا أردنا إخراجه عن طور البشرية وتأكيد القرآن الكريم على أنه ﷺ بشر مثلنا في قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ (الكهف: ١١٠)

فيه أبلغ رد على محاولات إخراجه من إطار الطبيعة البشرية، والآية نفسها حين تؤكد ذلك تنبه إلى ما يمتاز به النبي عن غيره من البشر، وتلك الميزة هي أنه الوحيد الذي يوحى إليه، والإمام الرازي يقول في تفسيره هذه الآية: «أي لا امتياز بيني وبينكم في شيء من الصفات إلا أن الله أوحى إلي أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد الصمد» [٢٣]؛ لقد أراد الله له - كما أراد لكل الأنبياء - أن يكونوا بشرًا تجري عليهم كل قوانين البشر، وقد اعتاد الناس في كل الأزمان أن يضيفوا إلى الشخصيات العظيمة من القدرات والصفات ما يخرجهم عن طور البشرية، وهذا تَزَيُّدٌ من البشر انطلاقًا من شدة حبهم لهذه الشخصية أو تلك، فيسبح الخيال بهم كل مذهب، وهذا أمر لم يرده الله -تعالى - لنبيه، ومن هنا كان التأكيد في قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾

ولم يكتف بالقول:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾

(٢٣)مفاتيح الغيب: ٥٠٣/٢١.

وإنما جاء الحرص في النص على المثلية:

﴿مِّثْلُكُمْ﴾

يجوز عليه كبشر ما يجوز عليكم من صفات البشرية ولوازمها.

إننا ننزه رسولنا الكريم الذي نحبه ونجله ونقدره ونضعه ـ كما وضعه ربه ـ في أرقى مكان، ننزهه عن إخراجه من طور البشرية، فسريان القوانين البشرية عليه لا ينقص من قدره شيئًا، فعلى الرغم من سريان كل هذه القوانين عليه فإنه لم يكن يومًا أسيرًا لشهوة أو عبدًا لمتعة دنيوية، وإنما سما وارتفع فوق كل الشبهات والشهوات رغم ما يشده إلى الأرض ـ كغيره من الناس ـ من رغبات.

والسؤال الذي ينبغي أن يطرح في هذا الصدد هو: ما الفائدة التي تعود على الإسلام والمسلمين من إثارة هذه الفتاوى؟ هل تساعد في تصحيح الصورة المشوهة عن الإسلام في الإعلام الدولي؟ وهل انتهت كل مشاكل المسلمين، ولم يعد أمامنا إلا البحث في الكتب القديمة لاستخراج كل ما هو غريب ومستنكر من الآراء؟

إننا نظلم الإسلام ظلمًا بينا، ونفتري على رسوله الكريم بهذا الغثاء الذي ينشر على الناس باسم الدين، والدين من كل ذلك بريء، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٩)

الإيمانُ والحبُّ

ربما يثير عنوان: «الإيمان والحب» لدى البعض شيئًا من الغرابة والدهشة لما يرتبط في أذهانهم من أفكار تختزل الحب في إطار أرضي ضيقٍ لا صلة له بالروحانيات، الأمر الذي لا يتفق بأي حالٍ من الأحوال مع سمو هذه القيمة العظيمة، ولكننا نبادر إلى القول بأن أعلى درجات الحب هي الحب المرتبط بالإيمان، وهذا ما سوف يتضح من خلال ما سنعرضه في السطور التالية.

إن التكوين الإلهي للإنسان ـ الذي خلقه الله في أحسن تقويم ـ يشتمل على الكثير من الآيات الباهرات التي جعلها الله من دلائل قدرته، وتأمل هذه الدلائل والبحث فيها بإخلاص من شأنه أن يساعد الإنسان على التوصل إلى أن الله -سبحانه وتعالى - هو الحق، وهو رب العالمين، مصداقًا لقوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(فصلت: ٥٣)

وإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة فإنه يكون قد وصل إلى أعلى درجات اليقين العقلي والإيماني معًا، وهنا تتعانق المعرفة العقلية مع المعرفة الروحية، وهذا يعنى أن الإنسان في تكوينه ليس مادة أرضية فقط، وليس عقلًا

يبحث عن الأدلة والبراهين فحسب، وإنما هو بالإضافة إلى ذلك صاحب حياة روحية متجذرة في أعماق نفسه ولديه عواطف ووجدانيات، وكلها أمور تختلف عن عمليات التصور والتفكير التي هي من خصائص العقل، والعواطف تعد تجارب وجدانية، وقد اعتاد الناس أن يطلقوا وصف «عاطفي» على الإنسان الذي ينفعل بسرعة ولا يستطيع أن يسيطر على مشاعره، ولكن هذا المعنى السلبي لا يعبر تعبيرًا صادقًا عن «العاطفة» في صورتها الحقيقية.

إن العاطفة من شأنها أن تدفع الإنسان إلي سلوك معين إزاء إنسان أو حيوان أو نبات أو مجموعة من الناس أو الأفكار، وذلك مثل عاطفة الحب أو الكره، فقد يتعاطف الإنسان مع شخص آخر أو مع فكرة من الأفكار، وقد ينفر من هذا الشخص أو تلك الفكرة، وقد لا تكون هناك أسباب منطقية للتعاطف أو النفور، ولكن هناك شعورًا باطنيًّا وإحساسًا داخليًّا يدفع المرء إلى هذا الجانب أو ذاك، وعلى رأس العواطف التي تجيش في نفس الإنسان عاطفة الحب التي تعد أرقى العواطف وأسماها وعلى الرغم من أن هذه العاطفة قد أصبح لها عيد يحتفل به الناس في معظم دول العالم، فإن الحديث عنها لا يزال في حاجة إلى شيء من الوضوح في الأذهان، فالإنسان منا يحب ويكره ويفرح ويحزن، وهذه كلها حالات طبيعية، وليست أمرًا شاذًّا، أما الشاذ فهو تبلد الإحساس وتحجر العواطف وانغلاق القلوب، ومثل هؤلاء يصفهم القرآن الكريم بأن قلوبهم

كالحجارة أو أشد قسوة.

وفى كتاب: «إحياء علوم الدين» يشرح لنا الإمام الغزالي بالتفصيل عاطفة الحب متدرجًا في شرحها من أضيق دائرة إلى أن ينتهي بها إلى عالم رحب حيث تجد فيه هذه العاطفة منتهى كمالها متمثلة في محبة الإنسان لله، وهذا هو ما قصدنا إليه من الربط بين الإيمان والحب في عنوان هذا المقال، وقد مهد الغزالي لذلك بالحديث عن هذه العاطفة وأقسامها والأسباب التي تدعو الإنسان إلى الحب في هذه الحياة.

وتحت عنوان: «بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله»[٢٤] يذهب الغزالي إلى القول بأن المحبة لا تُتَصَوَّرُ إلا بعد معرفة وإدراكٍ، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفُه، لأن الحب من خصائص الحس المدرك، والحب لديه هو عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الذي يبعث على اللذة، فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقًا، والحب أنواع: فلكل حاسة من الحواس إدراك لبعض الموجودات، ولكل واحدة منها لذة في بعض المدركات، ولهذا يميل الطبع إليها، وتعد من المحبوبات عند الطبع السليم، فلذة العين في إدراك المبصرات الجميلة والصور البديعة، ولذة الأذن في النغمات الجميلة، ولذة الشم في الروائح الطيبة، وهكذا.

وإن كان هذا هو الشأن في المدركات الحسية فإن

(٢٤) إحياء علوم الدين: ٢٩٦/٤.

مـدركات العقـل والقلـب أقـوى مـن مـدركات الحـس: «فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر، والقلب أشـد إدراكًا مـن العين، وجمال المعانـي المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار».

ويبين الغزالي أنه لا يخفى أن الإنسان يحب نفسه، وقد يحب غيره لأجل نفسـه، فحب الـذات يقع في بؤرة اهتمام الإنسـان، وهذا ليس أمرًا مسـتغربًا، بل يعد أمـرًا طبيعيًّا، ولكنـه يبدو شـاذًّا حينما ينغلق الحب علـى الذات وحدها ولا يتسـع لغيرها، فهنا تكون الأنانيـة المفرطة البغيضة، فالمحبوب الأول للإنسـان إذن هو ذاتـه وكمالها ودوامها، ثـم يأتي بعد ذلك حبه لشـريك حياته، وحبـه لماله وولده وعشيرته وأصدقائه.

ولكـن دائـرة الحب تتسـع أيضًـا لأمور أخـرى يحبها الإنسـان لذاتها، وليس لأنهـا تعد تكميلًا لذاتـه، وهذا هو الحب الحقيقي، فالجمال محبوب عند من يدرك الجمال، بل يمكن القول بأن الجمال محبوب بالطبع لذاته، ولسنا نبالغ إذا قلنـا: إن الحب والجمال صنوان لا يفترقان، فالإنسـان الذي يمتلئ قلبه بالحب يرى الجمال في كل شـيء، ويشع الحـب من قلبه إلى كل الكائنات مـن حوله، وإذا كان إيليا أبو ماضي يقول:

والـذي نفسـه بغيـر جمـال

لا يرى فـي الوجود شـيئًا جميلًا

فإنه يمكن القول أيضًا بأن الذي نفسه بغير حب لا يرى في الوجود إلا القبح والبؤس والكراهية والبغضاء.

وإذا كان الجمال محبوبًا بالطبع لذاته - كما سبق القول- فإن الغزالي يرى أنه إذا ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوبًا عند من ينكشف له جمالُه وجلالُه؛ مصداقًا للحديث الشريف: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَال»[٢٥].

وجمال كل شيء أو حسنه يعني أن يكون حاصلًا على كماله اللائق به، والجمال هنا بطبيعة الحال ليس جمالًا ظاهريًّا، وإنما هو جمال تتوافر فيه شروط الكمال الذي يليق به، وقد تتأكد المحبة بين شخصين لا بسبب جمال ظاهر، ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما جاء في الحديث الشريف: «الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»[٢٦].

ويمكن تلخيص أسباب الحب ـ في نظر الغزالي ـ في خمسة أسباب على النحو التالي:

أولًا: حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقاءه.

ثانيًا: حب الإنسان لمن أحسن إليه.

ثالثًا: حب الإنسان لمن كان محسنًا في نفسه إلى الناس، وإن لم يكن محسنًا إليه.

رابعًا: حبه لكل ما هو جميل في ذاته.

---

(٢٥) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، مطولًا.

(٢٦) أخرجه البخاري (٣٣٣٦) معلقًا، من حديث عائشة -رضي الله عنها -، ووصله مسلم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه -.

خامسًا: حبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن.

ويذهب الغزالي إلى أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها إلا في حق الله -تعالى -، ومن هنا فإنه لا يستحق المحبة في الحقيقة إلا الله -سبحانه وتعالى -، ولا محبوب في الحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله -تعالى -، وإن أجل اللذات وأعلاها يتمثل في معرفة الله -تعالى - والنظر إلى وجهه الكريم، وأنه لا يتصور أن يؤثر إنسان عليها لذة أخرى، اللهم إلا من حرم هذه اللذة، ولذلك يؤكد القرآن الكريم أن المؤمنين وحدهم هم الأشد حبًّا لله كما جاء في قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾

(البقرة: ١٦٥)

لأنهم الذين يدركون أكثر من غيرهم اشتمال الذات الإلهية على جميع الكمالات اللائقة بها.

وهكذا يتدرج الحب لدى الناس في دوائر عدة، ولكنها لا تكتمل إلا إذا انتهت إلى خالق الوجود ومقلب القلوب، وهذا هو الحب الحقيقي الذي ينبغي أن يؤثره الإنسان على كل حب سواه، ومن جانب آخر فإن هذا الحب من شأنه أن يضفي الحب والجمال على كل ما عداه، فحب الخالق يتبعه بالضرورة حب مخلوقات الله من بشر وحيوان ونبات وجماد، لأنها جميعًا دلائل على قدرته وعظمته سبحانه وتعالى.

وحب الخالق لا يعني بالضرورة رفض دوائر الحب

الأخرى التي تدور حولها حياة الإنسان في دنياه، وإنما المرفوض هو أن تحجب هذه الدوائر المختلفة عن الإنسان «الحب الحقيقي» والذي يتمثل في حب الله تعالى.

والأمر الذي ينبغي ألا يغيب عن الأذهان أن الحب بين الله والإنسان ليس حبًّا من جانب واحدٍ فقط، أي من جانب الإنسان، وإنما هو حب متبادل بين الخالق والمخلوق، ويعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله في خطاب للرسول ﷺ:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾

(آل عمران: ٣١)

وإذا أحب الله عبدًا جعل أهل السماء يحبونه، وجعل له القبول في الأرض، كما جاء في الحديث النبوي الشريف[٢٧]، وكل إنسان يلجأ إلى الله تائبًا من ذنوبه راجيًا رحمته وغفرانه، فإن الله يشمله بمحبته كما جاء في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

(البقرة: ٢٢٢).

ومحبة الله لعباده تتمثل في رحمته بهم، فهو سبحانه أرحم بعباده من رحمة الأم بوليدها، وإذا كان الحب والقسوة نقيضين لا يجتمعان، فكذلك الرحمة والقسوة

---

(٢٧) أخرجه البخاري (٣٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، ولفظ البخاري: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلانًا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض».

ضدان لا يلتقيان أبدًا.

إن الحــب هو إكســير الحيــاة، وحياة بلا حــب لا معنى لها، وإشاعة الحب بين الناس يجعلهم يقبلون على الحياة والعمل والبذل والعطاء والتضحية والفداء، وإذا ارتبط هذا الحب بالله فإنه كفيل بتصحيح مسار الإنسان على الأرض، والســير بالحيــاة في طريق مســتقيم لا اعوجاج فيه، وهو الطريق الذي يؤدي إلى ســعادة الإنسان في الدنيا والآخرة على السواء.

الفصل الثاني

العقل الإنساني ودوره في التقدم الحضاري

- العقل الإنساني.
- التفكير النقدي والتطور الحضاري.
- الكم والكيف في ميزان العقل والدين.
- الحرية والضوابط الأخلاقية.
- خواطـر حول الجهـود العلمية الإسـلامية بين الماضي والحاضر.
- فلسفة المقاومة.
- قيمة الوقت في حياتنا.

(١)

العقل الإنساني

لقد خلق الله الإنســان وخلق معه ومن أجله بقية الكائنات مسخرات له لإعمار الكون وصنع الحضارة فيه، ولكن القرآن الكريم قد أشــار في الوقت نفسه إلى حقيقة مهمة تتمثل في أن الله قد خلق الإنسان ضعيفًا بالقياس إلى معظم الكائنات، فكيــف أمكــن له أن يصبح ســيِّدًا في الأرض ومســيطرًا على غيره من الكائنات؟ أليست هذه مفارقة غريبة؟

إن الأمر هنا في الحقيقة ليس لغزًا محيرًا ولا ســرًّا مغلقًا، ولكنه يحتاج فقط إلى شيء من التوضيح للكشف عن مواطن الضعف ومواطن القوة لدى الإنســان للتعرف على الإمكانات التــي أهلته وحده من بين كل الكائنات لتولي دور القيادة في هذا العالم.

ولنبدأ أولًا بشرح نقاط الضعف لدى الإنسان مقارنة بغيره من الحيوانات، إن مثل هذه المقارنة ستكشف لنا من غير شك مدى ضعف الإنسان تأكيدًا للآية الكريمة:

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾

(النساء: ٢٨)

إننا عندما نقارن الإنســان بكثير مــن الحيوانات نجد أنها تتفوق عليه في كثير من الصفات والميزات، فطفولة الإنسان طويلــة بالقياس إلــى بقيــة الحيوانات، وهو فــي حاجة إلى من يرعى شــئونه لسنوات حتى يســتطيع أن يستقل بنفسه،

في حين أن هناك حيوانات تستطيع أن تستقل بنفسها بعد ساعات من الولادة.

وفضلًا عن ذلك فإن القدرات البدنية للإنسان محدودة بصفة عامة بالقياس إلى الكثير من الحيوانات التي زودها الله بقدرات حسية على السمع والبصر والشم تفوق ما لدى الإنسان بمراحل، كما أن هناك حيوانات تستطيع الدفاع عن نفسها بما لديها من مخالب وأنياب ولا يستطيع الإنسان أن يتغلب عليها في مواجهة مباشرة، ومن الميزات التي اختص الله بها الحيوانات قدرتها على تحمل تقلبات الجو من الحر والبرد، في حين أن الإنسان إذا تُرك عاريًا تحت وطأة التقلبات الجوية فإنه يموت لا محالة، فالحيوانات إذن -والحال كذلك- تتفوق على الإنسان في معركة الحياة، ولو اقتصر الأمر على هذا القصور الحاد في قدرات الإنسان مقارنًا بالحيوانات لكان قد انقرض منذ زمن طويل، أما الحيوانات فإنها استطاعت أن تحمي نفسها وتحافظ على نوعها منذ بدء الخليقة.

وعلى الرغم من هذا القصور الواضح في قدرات الإنسان فإنه قد استطاع أن يتغلب على كل الكائنات الأخرى ويخضعها لسيطرته، واستطاع أن يغير وجه الحياة على الأرض، وأن يصنع حضارات متتالية على مدى التاريخ، وأن يحدث ثورات هائلة في عالم الصناعات والاتصالات والمعلومات والتكنولوجيا، ولم يكتف بأن يكون مجال نشاطه مقتصرًا على الكوكب الأرضي، بل راح يبحث ويقتحم عالم الفضاء.

فكيف استطاع الإنسان أن يفعل ذلك كله ويتغلب على كل

الصعاب حتى وصل إليه؟ إنه إذا كانت جوانب ضعفه متمثلة في أمور جسمية فإن جوانب قوته تتمثل في أمر واحد لا يتوافر لأي كائن آخر وهو العقل الذي هو أجل نعمة أنعم الله بها على الإنسان، والعقل هو أثر من آثار النفخة الروحية الإلهية في الإنسان التي من أجلها استحق التكريم الإلهي والتفضيل على غيره من الكائنات، وفي ذلك يقول القرآن الكريم في خطاب موجه إلى الملائكة:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (الحجر: ٢٩)

إن جوهر الإنسان إذن هو العقل الذي يميز به الخير من الشر والنافع من الضار، والذي به يهتدي إلى خالق الكون ويدرك أسرار الخلق، وجلال الخالق، ويتعرف على سنن الله في الكون، ويرشد إلى كل وجوه الخير، ويصل إلى شتى المعارف والعلوم، ومن هنا وصفه حجة الإسلام الغزالي بأنه: «أنموذج من نور الله» كما وصفه الجاحظ بأنه: «وكيل الله عند الإنسان».

ومن أجل ذلك فإن عدم استخدام العقل يعد تنازلًا من الإنسان عن إنسانيته، ويعد في الوقت نفسه من أكبر الذنوب والخطايا التي يرتكبها الإنسان في حق نفسه وفي حق الله والتي تؤدي به إلى موارد التهلكة، كما يتضح ذلك من القرآن الكريم.

ومن هنا أكد الإسلام تأكيدًا صريحًا على ضرورة استخدام العقل وتحكيمه في كل الأمور، وقد نعى الإسلام على من

يقلـدون غيرهم تقليدًا أعمى دون تفكير، أي دون اسـتخدام لعقولهم، وأدان النبي ﷺ التقليد بشـدة في قوله: «لاَ تَكُونُوا إِمَّعَةً..»[٢٨] أي مقلدًا للآخرين تقليدًا أعمى.

ودعوة الإسـلام لاسـتخدام العقـل لا تقتصر علـى الأمور الدنيوية الحياتية، فهذا أمر مفروغ منه، وقد أشـار النبي إلى ذلـك حين قال: «أنتم أعلم بِأَمْـرِ دُنْيَاكُم»[٢٩] فالأمور الدنيوية تعتمد على البحث والدراسـة والعلم بأوسع معانيه، ومن أجل ذلك لا يضع الإسـلام سـدودًا ولا قيـودًا على مسـيرة البحث العلمي.

لقد امتدت سماحة الإسلام إلى الدعوة إلى استخدام العقل في أمور الدين، لأن الدين نفسـه لا يفهم إلا عن طريق العقل، لاسـتنباط الأحكام الشـرعية، وقد كان ذلك واضحًا في إجابة معاذ بن جبل على سـؤال النبي لـه: «بماذا تقضي إذا عرض لك قضاء»؟ فكانت إجابته: بكتاب الله ثم بسـنة رسـول الله، فإذا لـم يجد فيهما اجتهد برأيه، أي اسـتخدم عقله وتفكيره في استنباط الحكم [٣٠].

ومن سـماحة الإسلام أيضًا وتشـجيعه للاجتهاد أنه جعل للمجتهـد الـذي يجتهد ويخطـئ أجرًا واحـدًا، وللذي يصيب أجريـن، وعلـى أسـاس مـن الاجتهاد قامـت مـدارس الفقه

---

(٢٨) أخرجـه الترمذي (٢٠٠٧) من حديث حذيفة -رضـي الله عنـه -، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٢٩) أخرجه مسلم (٢٣٦٣) من حديث عائشة وأنس -رضي الله عنهما -.

(٣٠) أخرجه أبو داود (٣٥٩٢) والترمذي (١٣٢٧) عن أناس من أصحاب معاذ -رضي الله عنه -، وقال الترمذي: «ليس إسناده -عندي- بمتصل».

الإسلامي المعروفة، وازدهرت علوم الدين والدنيا على السواء.

ونظرًا لأن النبي ﷺ قد أشار إلى ضرورة التجديد المستمر في الأمور الدينية في قوله: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[٣١] فإن الاجتهاد كان الآلية التي قررها الإسلام للتجديد المستمر لمواكبة متطلبات الحياة وتطورات كل عصر، فقد كان الإسلام حريصًا كل الحرص على ألا تتجمد حياة المسلمين؛ لأن ذلك مخالف لطبيعة الحياة وسنة الكون، فالتجديد قانون الوجود، والمقابل للتجديد هو الجمود، والجمود موات، والإسلام جاء دينًا للحياة بجميع أبعادها، فالقعود به عن مواكبة مستجدات الحياة يعد ضد طبيعته، ويمثل جهلًا فاضحًا بتعاليمه ومقاصده.

(٣١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه -، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة: ص٢٠٣: «إسناده صحيح».

(٢)

التفكير النقدي والتطور الحضاري

يأتي مفهوم النقد في المعاجم العربية بصفة أساسية في مجـال التعاملات المالية، فالنقد يعني ما هو خلاف النسـيئة -أي البيـع بأجل- ويقال: انتقد الدراهم بمعنى قبضها، ولكن هناك معنى آخـر -ورد أيضًا في هذه المعاجم- أقرب إلى ما نقصده في هذا المقال بالتفكير النقدي، إذ يقال: نقد الدراهم وانتقدها، أي أخرج منها الزيف، وناقده: أي ناقشه في الأمر.

ويمكن القول بصفة عامة بأن النقد يعني امتحان شيء ما مـن جهة قيمته، وهذا يعني أن النقد ليس مجرد بيان العيوب وكشـف القصور- كما هو شائع لدى عامة الناس- وإنما هو أيضًا إبراز الإيجابيات، وعندئذ يمكن أن يكون النقد موضوعيًّا ونزيهًا وهادفًا.

ويمكـن القول أيضًا بناء على ذلك كله بأن التفكير النقدي يعني عدم القبول بشـيء إلا بعد اختباره والتأكد من صحته، وفي هذا المعنى يقول القرآن الكريم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾

(الحجرات: ٦)

أي: تثبتـوا من صحـة النبأ، وهـذا أمر ينسـحب على كل جوانب حياتنا من الناحيتين النظرية والعملية.

والمقابل للتفكير النقدي هو التقليد والتسـليم، الأمر الذي

يعني تعطيل العقل وإلغاء التفكير، فالفرق بين الموقفين إذن كالفرق بين النقيضين، فالأول إيجابي والثاني سلبي، والأول يؤكد الشخصية الإنسانية، والثاني يلغيها ويمحو معالمها.

وإذا كان الله قد خلق الناس مختلفين، على الرغم من اتفاقهم في الجوهر، فإنه قد أراد أن يكون لكل فرد شخصيته المستقلة التي تميزه عن غيره، وقد أكد لنا الخالق ذلك بما نشاهده ونعلمه من عدم وجود فردين في هذا العالم يتفقان في بصمة إبهامهما، الأمر الذي يرمز إلى استقلالية كل فرد، والمطلوب هو أن ننمي هذه الاستقلالية لا أن نعمل على إلغائها، وذلك لن يكون إلا بتشجيع ممارسة التفكير النقدي.

والمفروض أن مصطلح التفكير نفسه يتضمن -أو ينبغي أن يتضمن- مفهوم النقد، فالذي يمارس التفكير هو إنسان يستخدم عقله، وهذا يعني أنه إنسان إيجابي، والنقد هو تفاعل مع الفكر الآخر، وممارسة التفكير النقدي من شأنها أن تجعل للحياة معنى، لأنها تثري فكر المجتمع وتدفع به قدمًا إلى الأمام، وتحافظ في الوقت نفسه على قيمه وهويته الحضارية.

ولا يخفى على أحد ما يمارسه الإعلام الدولي الموجه في عالمنا المعاصر من ضغوط رهيبة على عقول الناس في كل مكان بهدف نشر مفاهيم وقيم اجتماعية وأخلاقية وثقافية معينة في العالم النامي على وجه الخصوص، حتى يسهل

توجيهه إلى الأهداف التي تريد القوى العظمى تحقيقها.

وفي كثير من الأحيان تتعارض هذه المفاهيم والقيم مع الخصوصيات الحضارية للمجتمعات النامية بصفة عامة والمجتمعات الإسلامية بصفة خاصة، الأمر الذي يهدد الهوية الحضارية لهذه المجتمعات، وحتى يمكن التمييز بوضوح بين ما هو ملائم لنا وما هو غير ملائم، فإن ذلك يتطلب عقلية نقدية لا تأخذ أي شيء على علاته، وإنما تبحث وتدرس وتقارن وتختار ما يلائمها، وترفض ما لا يتفق مع خصوصياتها الحضارية والدينية.

ولا شك في أن العقلية النقدية ليست منغلقة على نفسها، وإنما هي عقلية متفتحة، لا ترفض شيئًا لمجرد الرفض أو لأنه آتٍ من جانب جهات لا تريد لنا الخير، فالرفض أو القبول لديها ينبني على أسس ومبادئ، ولا يأتي عشوائيًّا، بل يكون بعد الدراسة والبحث والتقييم الموضوعي، وقد كان الفيلسوف العظيم ابن رشد خير نموذج لهذه العقلية النقدية المتفتحة، فقد قرر أن الاطلاع على ما لدى الآخرين يعد واجبًا شرعيًّا، ثم أضاف قائلًا[٣٢]: «ننظر في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم، فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم».

---

(٣٢) في «فصل المقال»: ٢٨.

ومن هنا تأتي ضرورة تعليم أبنائنا وبناتنا التفكير النقدي حتى يكونوا قادرين على التمييز بين الخير والشر والصواب والخطأ، وبذلك نوفر لهم الحماية من الانسياق وراء دعاوى التطرف والجمود والانغلاق، أو أي دعاوى أخرى هدامة ترمي إلى محو هويتهم الحضارية، فواقع الحال يبين لنا أن طريقة التعليم التقليدية التي تعتمد على مجرد الحفظ والتلقين لا تنتج لنا إلا أناسًا من أصحاب الشخصيات الباهتة التي لا لون لها ولا طعم، أي تنتج لنا شخصيات متواكلة واستسلامية.

أما التفكير النقدي فإنه ينتج شخصيات فاعلة لها رأي ولها فكر ولها نظرة فاحصة في الأمور، وهذا يعني إثراء المجتمع بأعضاء عاملين يدفعون بعجلة الحياة إلى الأمام، وينهضون بمجتمعهم على جميع المستويات، والتوصل إلى هذا المستوى يتطلب بطبيعة الحال تغييرًا في المناهج الدراسية وفي أساليب التدريس.

ولا شك في أن الدعاة في المساجد لهم أيضًا دورٌ بالغ الأهمية في توعية المواطنين بقيمة العقل وقيمة التفكير، فمن المعروف أن الإسلام قد اهتم اهتمامًا بالغًا بذلك، الأمر الذي حدا بالمرحوم الأستاذ عباس العقاد إلى تأليف كتابه القيم: «التفكير فريضة إسلامية».

وهناك أمثلة رائدة في استخدام التفكير النقدي في تاريخ العلوم الإسلامية، فعندما وجد العلماء المسلمون في وقت

مبكر من التاريخ الإسلامي انتشار مئات الآلاف من الأحاديث المنسوبة إلى النبي ﷺ انبرى عددٌ منهم للقيام بمهمة نقدية بالغة الأهمية لتمييز الأحاديث الصحيحة من الأحاديث الضعيفة أو الكاذبة.

ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى مثال واحد وهو نموذج الإمام البخاري الذي كرس حياته العلمية كلها لهذه المهمة، فبعد أن جمع أكثر من خمس مئة ألف حديث تدور على ألسنة الناس، وضع قواعد صارمة وشروطًا محكمة للتمييز بين الصحيح وغير الصحيح من الأحاديث، وقام بتطبيقها على الأحاديث المروية من حيث السند والمتن، وجاءت حصيلة هذا العمل النقدي في كتابه: «صحيح البخاري» في حوالى تسعة[٣٣] آلاف حديث فقط من بين مئات الآلاف المشار إليها، فإذا حذفنا المكرر، والموقوف على الصحابة، والمقطوع ـ المنسوب للتابعي ـ من الأحاديث الواردة في هذا الكتاب فسنجد أن الذي صح لدى هذا الإمام الكبير حوالي ألفين وست مئة حديث فقط.

ومن خلال هذا المثال وغيره من أمثلة أخرى في مجالات العلوم المختلفة يتضح لنا أن التفكير النقدي كان وراء تطور العلوم والفنون في الحضارة الإسلامية، والشيء نفسه نجده

---

(٣٣) كذا في الأصل: وفي «صحيح البخاري» ٧٥٦٣ حسب ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي (المجلة).

لــدى الأمم الأخرى، فقــد كان التفكيــر النقدي وراء انتشــار وازدهار التفكير الفلســفي والعلمي في مختلف الحضارات، وكان وراء كل إنجــاز حققتــه الأمم والشــعوب فــي مجالات الابتكار والإبداع على جميع المســتويات، ويمكن القول بصفة عامــة بأن التطوير والتجديد في أي مجال من مجالات حياتنا يأتي نتيجة طبيعية لممارسة التفكير النقدي.

وهنــاك أنــاس لا يطيقــون النقــد، بــل يرفضونــه تمامًــا ويستمرئون التقليد والاتباع، ولا يريدون لأحدٍ أن يوقظهم من غفلتهم أو غفوتهم، فهم ســعداء بها، وهذه النوعية من الناس لا يمكن الاعتماد عليها في النهوض بالمجتمع.

ومجــالات النقــد كثيــرة ومتنوعة، وتشــمل جميع مجالات الحيــاة، فقد يكون النقد موجهًا إلى أوضــاع المجتمع أو إلى أي مجال من المجالات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الدينية أو غيرها من مجالات ملتصقة تمام الالتصاق بحياة الناس وحاجاتهم اليوميــة أو العامة، وقد يكون النقد موجهًا إلــى الأعمــال العلمية أو الفنيــة أو غيرهــا، وكل ذلك مطلوب بطبيعة الحال لإظهار الحقائق أمام الناس، وهذه الممارســة للنقد على كل هذه المستويات تعني حيوية المجتمع وتفاعله مع الأحداث والأفكار.

وهناك لون آخر من ألوان النقد لا يقل في أهميته عن الألوان المشار إليها، بل ربما يمكن القول بأنه يمهد لها حتى يمكن أن

تسير في الطريق الصحيح، ونعني بذلك النقد الذاتي الذي يعد الخطوة الأولى علــى الطريق الصحيح، فهناك بعض من الناس لديه هواية النقد لكل شيء، وفي غمرة ذلك كله ينسى أن يوجه النقد لنفســه أولًا، ولو فعل ذلك فســيكون أمرًا إيجابيًّا يساعده على تصحيح مسار حياته وتصحيح أفكاره وتوجهاته، ويصبح بالتالي قادرًا على الإسهام بشكل إيجابي في تطوير المجتمع.

وأي أمــة تريد أن تتقــدم وترتقي في ســلم التحضر لا بد لها من تشــجيع التفكير النقدي على جميع المســتويات، فإن ذلك من شأنه أن يحرك المياه الراكدة ويوقظ العقول التي تم تخديرها بشكل أو بآخر فأصبحت عاجزة عن التفكير بصفة عامــة والتفكيــر النقدي بصفــة خاصة، وبممارســة التفكير النقدي نســتطيع أن نغير ثقافة المجتمع ونبعث فيه الحيوية والطمــوح والانطلاق إلى آفاق التقدم، وهــذا ما تحتاجه أمتنا وما تمليه علينا مسئوليتنا.

(٣)

الكم والكيف في ميزان العقل والدين

سأل أحد الباحثين زميله الذي يستعد للحصول على درجة الدكتـوراه: كم عدد صفحات الرسـالة؟ فأجاب الباحث: أكثر من ثمان مئة صفحة، فقال السـائل: هذا شيء عظيم، وبذلك حكم على كم الرسـالة دون أن يدري ما إذا كانت تشتمل على شـيء جديد أم لا؟ وفي موقف آخر كانـت إجابة الباحث: إن الرسالة تشـتمل على مئتين وخمسين صفحة، وكان رد فعل السـائل مختلفًا تمامًا، ونظر إلى الباحث بأسـى واستخفاف فـي الوقت نفسـه، فقلة عـدد صفحات الرسـالة يجعلها في نظره خفيفة الوزن والقيمة.

وهذه النظرة الكمية- للأعمال العلمية والأبحاث الجامعية- إن دلـت على شـيء فإنما تدل على السـطحية فـي التفكير والضحالـة فـي مسـتوى الحكم على الأشـياء، وهنـاك كثير مـن الباحثين -وبخاصة فـي الكليات النظريـة ـ لا يهتمون كثيـرًا بالتجديـد والإبداع والابتـكار في بحوثهم ورسـائلهم قدر اهتمامهم بالكم، حيث يعتمد هؤلاء على حشـو رسائلهم العلمية بنقول لا ضرورة لها من هنا وهناك وبدلًا من التركيز على جوهر الموضوع ومحاولة الاجتهاد بعرض وجهات نظر مبتكرة، نجد الباحث في كثير من الأحيان يركز اهتمامه على

تضخيـم بحثه كما لو أن تقييم العمـل العلمي ينبني على ما تزنه الرسالة بالكيلو جرامات وليس بالمعايير العلمية.

والأمـر المؤسـف أن ثقافة الكم قد انتشـرت في مجتمعنا بشـكل كبيـر على جميع المسـتويات، فالجامعـة التي يصل فيهـا أعداد الطـلاب إلى مئات الآلاف تعـد جامعة ذات قيمة، أمـا الجامعة التي تضم مئات فقط من الطلاب فقيمتها تكون أقـل في نظـر هؤلاء الذيـن ينظرون إلى الأمور من سـطحها ومظهرها وليس من عمقها ومخبرها.

وقد طغى هذا التفكير الكمي على عاداتنا الاجتماعية بشكل لا تخطئه العين، فحين يفكر شـاب في الزواج ـ على سـبيل المثال - فإن العادات الاجتماعية التي ترسـخت في المجتمع تفرض نفسها في اختيار الأثاث وعدد الغرف التي لا بد أن تملأ بالأثاث حتى ولو كان المسـكن صغيـرًا فالمظهر الاجتماعي له الأولويـة بصرف النظر عما إذا كان الذين سيسـكنون في هذا المكان سيسـتطيعون أن يتحركوا في المسكن ويلتقطوا أنفاسـهم فيه أم لا؟! وعما إذا كانوا سيتمكنون ـ هم وأسرهم ـ من تسديد ديون هذا البذخ أم لا؟!

والشـيء نفسـه ينطبق على الحرص على كثـرة الإنجاب دون مراعاة لإمكانيات الأسـرة في الإنفاق والمسكن والتربية وغيـر ذلك من متطلبات، فكثرة النسـل تعد في نظر البعض

«عــزوة» لرب الأســرة وقوة للوطن بصرف النظر عما تســببه الكثــرة -التي لا ضرورة لها- من مشــكلات جمة على جميع المستويات.

ولا تخلو عاداتنا الاجتماعية في الأكل والشرب من سلبيات كبيــرة، فحين يدعو البعض عددًا مــن أصدقائه أو أقربائه أو معارفه إلى الغداء أو العشاء يحرص على كم الطعام الذي يقدم على المائدة، فإذا كان عدد المدعوين خمســة أفراد، فالطعام الذي يقدم بألوانه المختلفة يكفي لأكثر من ضعف هذا العدد، وفي ذلك إهدار لا مبرر له للمال والجهد، وإسراف مذموم في العقل وفي الدين على الســواء، ولكــن المظهر الاجتماعي في ذلك كله هو الأهم، والافتخار والمباهاة والمظهرية هي الأمور الحاكمة، ولا أهمية لما وراء ذلك.

أما في شــهر رمضان فحدث ولا حرج، فعلى الرغم من أنه شــهر الصيام والروحانيات والزهد، فــإن حياتنا تتحول فيه بفعل ثقافة الكم إلى مضاعفة كميات الطعام وألوانه بشكل لا نظير له في أي شــهر من شهور السنة، وذلك في تحد صارخ لجوهر وروح هذا الشــهر، ويستهلك المجتمع في هذا الشهر أضعاف ما يستهلكه في أي شهر آخر من مختلف أنواع السلع، وتضطر الحكومة للتجاوب مع هذه الرغبة الجماهيرية.

ويلحــظ المــرء بشــكل واضــح غلبة شــهوة الشــراء على

مواطنينـا، وعلـى العامليـن منهم فـي دول الخليـج بصفة خاصة، ولا ينسـى الحجاج والمعتمرون فـي رحلتهم الدينية ـ التـي يتجردون فيهـا من كل الماديـات ـ أن يحملوا معهم عند عودتهم أحمالًا ثقيلة من الأشياء التي يقبلون على شرائها إقبـالًا منقطع النظير، بحجة أنها من الأماكن المقدسـة، على الرغـم من أنها مصنوعة في الصين وتايوان وكوريا، ولا صلة لهـا بالأماكن المقدسـة، وذلك فضلًا عن وجـود مثيل لها في مصـر، أفلا يدل ذلك على أن مجتمعنا قد تحول -مبكرًا- إلى مجتمع اسـتهلاكي قبل أن يعبر الهوة التي تفصل بينه وبين مجتمع الوفرة؟

إن انتشـار ثقافة الكم يدل في حقيقة الأمر على ازدياد فقر الفكر في المجتمع وغياب العقل، وقد نبه الشيخ محمد عبده إلى أن الفقر الحقيقي ليس في قلة الموارد، وإنما في قلة الراشدين المتمسـكين بالعقل ومقرراته، وكلما ازدادت أعداد الراشـدين يعتدل الميزان، وكلما قل عددهم يختل الميزان، ويميل إلى كفة التخلف والتأخر، و لا شك في أن الذي يساعد على استمرار هذا الخلل هو تلك العادات والتقاليد الاجتماعية العقيمة التي تتحكم في المجتمع وتستعبد أفراده، وقد آن الأوان للتخلص منها؛ لأنها تعوق حركته وتشل فاعليته وتعطل تقدمه.

وإذا أردنـا أن نتخلـص مـن كل هذه السـلبيات فعلينا أن

نمـارس النقـد الذاتـي ونراجع أنفسـنا ونعدل مـن أخلاقنا وسـلوكياتنا ونتخلى عن التقاليد البالية التي لم يعد لها مكان في عالم اليوم، وإذا نظرنا إلى العالم المتقدم من حولنا وبحثنا عن أسـباب تقدمه فسـنجد أنه قد تخلى عـن التقاليد البالية وركز علـى الجوهر دون الشـكل واهتم بالكيـف دون الكم، وبذلك حطم العوائق وأعطى للعقل الراشـد دوره الكامل في الحياة، وبذلك أصبحت حركته سـريعة تواكب كل المتغيرات، بل تصنعها وتحدد لها مساراتها.

وعلـى الرغم من أن الديـن ـ الذي لا يزال له في مجتمعاتنا عمقه العميق في النفوس ـ يرفض تمامًا النظرة الكمية للأمور، ولا يحفل كثيرًا بالشـكليات ولا يهتم بالمظاهر الخادعة، فإن العادات الاجتماعية والقيم السلبية ـ التي أشرنا إلى بعضها ـ قد اسـتطاعت أن تفرض نفسها وترسخ أقدامها في المجتمع وفـي حياة النـاس، وتزاحم قيـم الدين، بـل أكاد أقول: تحل محلها، وهذا لون آخر من ألوان الانفصام في حياة الناس بين جوهر الدين والسلوك العملي المخالف تمامًا للقيم الدينية.

وإذا أردنـا أن نذكـرَ ـ مجرد تذكير ـ بنظرة الإسـلام إلى قضيـة الكم والكيف فسـيتضح لنا الفارق الكبيـر بين القيم الدينية وعاداتنـا وقيمنا الاجتماعية، فالواقع العملي في حياة المسـلمين في مراحل الإسـلام الأولى يبين لنا أن المسـلمين

قد انتصروا على المشـركين في موقعة بدر رغم قلة عددهم، فالكيف هنا وليس الكم كان سـبب النصر، ولكن المسـلمين فـي المقابل قـد انهزموا في موقعة حنين رغـم كثرة عددهم وتفوقهـم فـي ذلك علـى أعدائهم؛ لأنهـم اعتمـدوا على الكم واعتقدوا أنه سـيكون سـبيلهم إلى النصر، وخاب ظنهم، وقد نهى القرآن الكريم ـ على سبيل المثال ـ عن الإسراف والتبذير في الأكل والشرب بقوله:

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾

(الأعراف: ٣١)

ووصف المبذرين بأنهم:

﴿إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾

(الإسراء: ٢٧)

والإسـلام في دعوته إلى الاعتدال والوسـطية يلفت نظرنا إلى أن الكثرة ليست هي المعيار الصحيح للحكم على الأمور، ومن الأحاديث النبوية المشـهورة فـي هذا الصدد قصة ثلاثة من الصحابة ذهبوا إلى بيت رسـول الله يسـألون عن عبادته ليقتدوا به، فلما حكى لهم ما يفعله الرسول في عبادته وجدوا أنها تعد قليلة جدًّا بالنسـبة لما يفعله كل منهم، وذكر أحدهم أنـه يصلي طـوال الليل ولا ينـام، وقال آخر: إنـه يصوم كل الأيـام ولا يفطر، وقـال الثالث: إنه يعتزل النسـاء ولا يتزوج،

وهكذا وقع في ظن كل منهم أن معيار التقوى يتمثل في كثرة الصلاة والصيام والعزوف عن الدنيا على النحو الذي شرحه كل منهم، وعندما سمع النبي ﷺ كلامهم قال لهم: « وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِني»[٣٤]، فلا إفراط ولا تفريط، فكلاهما مذموم في العقل وفي الدين.

فالإسلام إذن لا يعول على الكثرة أو الكم ولا يعتمد أيًّا منهما معيارًا صحيحًا للحكم على الأعمال أو العبادات، وإذا كان المسلمون يشكلون خمس سكان العالم فإن هذا العدد الكبير لا يقابله -للأسف الشديد - قوة مادية أو علمية أو حضارية أو حتى روحية في دنيا المسلمين.

وقد تنبأ النبي ﷺ بالحال الذي وصل إليه المسلمون في عالم اليوم من التدني في المستوى الحضاري على الرغم من كثرة عددهم الذي يربو على مليار ونصف المليار من البشر، وانعدام أي دور لهم في العالم يتناسب مع هذه الكثرة العددية، وفي ذلك يقول: «يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ كَمَا تَدَاعِي الْأَكلة إِلَى قَصْعَتِهَا، فقال قائل: ومِنْ قِلَّةٍ نحن يومئذ؟ قَالَ: بل أنتم يومئذ كثير، وَلَكِنَّكم غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْل»[٣٥].

---

(٣٤) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس -رضي الله عنه -.

(٣٥) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧) من حديث ثوبان -رضي الله عنه -.

فالنبــي ﷺ هنا لا يحفل بالكم أو بكثرة العدد الذي يصفه بغثاء السيل، فالمهم هو ما يتمتع به أفراد المجتمع من فاعلية ورشــد وتركيز على جوهر الأمور والارتفاع فوق الهامشــيات والشــكليات والمظهريات، وقبل كل ذلك وبعده تمكين العقل الإنســاني مــن أداء دوره الفاعــل والمؤثر فــي تطوير الحياة والارتقاء بالمجتمع، وبعبارة أخرى في التخلي عن ثقافة الكم لصالح ثقافة الكيف.

(٤)

الحرية والضوابط الأخلاقية

مفهـوم الحرية من أكثـر المفاهيم التي تتـردد كثيرًا في مختلف الأوسـاط وعلى ألسنة المتحدثين في مختلف وسـائل الإعلام وفي الأفلام والمسلسـلات وفي غيرها من وسـائل الاتصال، ومن الملحوظ أن مفهوم الحرية يشيع الحديـث عنه بدرجة أكبر في البـلاد النامية التي تحررت حديثًا من الاستعمار، ولا تزال تلتمس طريقها نحو الحرية على المسـتويات السياسـية والاقتصاديـة والاجتماعية، أمـا البلاد المتقدمـة فالملاحظ أنها لا تتحـدث كثيرًا عن الحريـة، لا لأنها تفتقدها، وإنما لأنها تمارسـها، وبالتالي فهي ليست في حاجة إلى الحديث كثيرًا عنها.

وفي غابر الأزمـان وحتى أعتاب العصر الحديث كانت المجتمعات البشـرية تنقسـم إلى أحرار وعبيـد، وكانت تجـارة العبيـد مـن التجـارات الرائجة حتـى عهد ليس بالبعيد، وكانت تمارسها دول تتصدر الآن دول العالم في محاولاتها فرض الحرية على الشعوب النامية على النحو الذي تمارسـه في بلادها اعتقادًا منها أن هذا هو النموذج الأمثل، ولا بأس لديهـا من اللجوء إلى فرض هذا النموذج بقوة السـلاح، كما هو حادث في عالم اليوم، وأقرب مثال

علـى ذلـك ما حدث فـي العـراق، وإن كان هـذا لا ينفي بطبيعة الحـال أن لهذه الدول من وراء ذلك أهدافًا أخرى غير معلنة.

والحق أن الحرية حق طبيعي لكل إنسـان وليس منحة من أحـد، ومن هنا كانت صيحة عمر بن الخطاب في وجه عمـرو بن العاص - الذي اعتـدى ابنه على مواطن مصري بـدون وجه حـق - حين قال: «متى اسـتعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»[٣٦].

وعلـى الرغم من وضوح هـذه الحقيقة التـي لا تحتاج إلـى برهان فـإن الواقع العملـي في تاريخ البشـرية كان أمـرًا مختلفًـا، فقد مارسـت الشـعوب المختلفـة التفرقة العنصرية واعتادت على التقسـيم الظالم بين الناس الذي جعـل من البعض سـادة، لهم كل الحقـوق، ومن الآخرين عبيدًا، مجردين من حقوقهم الطبيعية، وقد تورط في ذلك فلاسـفة عظام من أمثال أرسـطو المعلـم الأول الذي كان يعتبـر الرق نظامًا طبيعيًّا، ويذهب إلـى القول بأن العبيد مجرد آلات حيـة ضرورية للقيام بالأعمـال الآلية المنافية لكرامة المواطن الحر، والسادة الأحرار في نظره هم شعب اليونان الذي ينتمي هو إليه.

(٣٦) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر والمغرب: ص١٩٥.

إنها قصة طويلة خاضتها البشرية عبر تاريخها الطويل حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من تحقيق أهدافها في الحرية بدرجات متفاوتة بطبيعة الحال.

والسؤال المهم في هذا الصدد: هل الحرية مطلقة أم نسبية؟ وإذا لم تكن مطلقة فما هي حدودها التي تتوقف عندها؟ وهل هناك علاقة بين الحرية والأخلاق؟ وكيف يشعر المرء بالحرية؟

إن مما لا شك فيه أنه لا توجد حرية مطلقة في عالم الإنسان، ولو كانت هناك حرية مطلقة لكل فرد يفعل ما يشاء دون أي اعتبار آخر لانقلب العالم إلى حالة من الفوضى والعبثية، ومن هنا فإنه لا يمكن تصور الحرية بدون مسئولية، فالحيوان غير مسئول لأنه لا يعقل، أما الإنسان - الذي حباه الله نعمة العقل - فإن حريته لا تنفصل عن المسئولية، وتلك هي السمة الفارقة التي تميز الإنسان عن الحيوان، فلا حرية إذن بدون مسئولية، ولا مسئولية بدون عقل، ولا عقل بدون قيم تضبط سلوك الأفراد والجماعات.

وهكذا يمكن القول بأن الحرية الواعية هي أساس المسئولية الأخلاقية، والمسئولية صفة تلازم صاحبها في كل مراحل الفعل الإنساني من بدايته حتى نهايته؛ فالإنسان من منطلق مسئوليته الأخلاقية مطالب قبل الفعل بالالتزام

بفعـل ما ينبغي أن يكون، ونظرًا لأنـه يتمتع بالحرية فإن تصرفه حين يقدم على الفعل لا يقبل الضغط أو الإكراه.

ونتيجة لذلك قد يكون التصـرف إيجابيًّا محققًا للغاية الأخلاقية، وقد يكون سـلبيًّا على النقيـض من ذلك، ولكن الإنسـان بعد الفعل -من منطلق مسئوليته الأخلاقية أيضًا كإنسـان - يحتاج إلى عملية تقييم لما صدر عنه من فعل، أي إنه مطالب بالالتفات إلى الماضي في عملية اسـتجواب ومحاسبة لنفسه.

والإنسـان بطبيعته كائن اجتماعي، وهو في حاجة إلى المجتمع الإنسـاني لتطوير شـخصيته وتحقيق ذاته، ومن ناحيـة أخرى فإن عليه التزامـات أدبية تجاه هذا المجتمع الإنساني، وهذه الالتزامات ليست مجرد التزامات مفروضة عليه من قوة خارجية عنه، وإنما هي مرتبطة أشد الارتباط بوجوده الإنساني.

وكل إنسـان سـليم العقـل يشـعر بأنـه لو لـم يتحمل مسـئوليته تجـاه الآخريـن فإنه لا يجوز لـه أن ينتظر من الآخرين أن يتحملوا بالنسـبة له أي مسئولية، فلو لم أعدل في حق الآخرين فإنه لا يجوز لي أن أنتظر منهم أن يعدلوا في حقي، والإنسـان الـذي يتنكر لالتزاماتـه الأدبية تجاه الآخرين هو إنسـان يعزل نفسه عن المشـاركة الإنسانية، ونظرًا إلى أن الإنسـان بطبيعته كائن اجتماعي محتاج إلى

المجتمع الإنساني -كما سبق أن أشرنا إلى ذلك - فإن هذه الحالة التي يعزل فيها نفسه تعد بالنسبة له مميتة من الناحية الأدبية، ولهذا يبدو أمرًا غريبًا، وموقفًا متناقضًا عندما يتنكر المرء لهذه المسئولية ويحاول التهرب منها.

ويرجع السبب في إمكان إنكار الالتزامات الإنسانية من جانب كثير من الناس، أو على الأقل اعتبارها التزامات خارجية بحتة مفروضة من خارج الذات، إلى أن المسئولية -مثل كل شيء آخر يتعلق بالأخلاق - متصلة أوثق الصلة بالحرية الإنسانية.

وهناك جبريون ينكرون الحرية، وبذلك يرفضون تحمل مسئولية تصرفاتهم، ويضرب الفيلسوف «سكارل ياسبرز» مثالًا يعبر به عن هذا الموقف المتناقض بقوله: «عندما وقف المتهم يدافع عن براءته أمام المحكمة قائلًا: إنه ولد باستعدادات أردته إلى الشر، وإنه ما دام لم يستطع أن يفعل خلاف ما فعل فلا ينبغي أن يعتبر مسئولًا، أجابه القاضي متهكمًا: إن عين السبب يبرر سلوك القاضي، فإنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا آخر غير إدانة المتهم من حيث كونه مجبرًا في هذا العمل طبقًا للقوانين الموضوعة»، ونحن نشعر بالحرية شعورًا مباشرًا إذا ما وقفنا موقف الاختيار بين سلوكين، فالإنسان يكون على وعي بحريته عندما يمارسها، وممارسته لهذه الحرية في علاقته مع الآخرين تتمثل في صور مختلفة

يمكن إرجاعها إلى ثلاث صور أساسية:

أما الصورة الأولى فإنها تتمثل في محاولة إشباع هذه الحرية بلا حدود دون مراعاة للآخرين، انطلاقًا من أنانية مفرطة لا تعترف بحدود ولا قيود، وذلك في غياب تام للعقل ومقرراته، وهذه الصورة لا تليق بالإنسان ولا تتفق مع كرامته.

وأما الصورة الثانية فإنها مناقضة تمامًا للصورة السابقة، وتتمثل في الإيثار المفرط والتضحية بالذات من أجل الآخرين، وهنا يتنازل المرء عن حريته في سبيل إفساح المجال للغير، وهذا السلوك -على الرغم من سلامة القصد فيه - لا يحقق للمرء ذاته ولا يكفل له ممارسة حريته علي نحو سليم.

وأما الصورة الثالثة فإنها مزيج من الصورتين السابقتين تجمعهما في وحدة واحدة وترتقي بهما، في توازن يحقق للإنسان وجوده الإنساني على نحو يليق بإنسانيته، وهنا يتعامل الإنسان مع الآخرين على أنه إنسان، أي على أنه كائن حر، وبذلك تكون العلاقة الإنسانية هي علاقة مجتمع يتكون من موجودات حرة يتنازل كل منهم عن قدر من حريته في سبيل قيام مجتمع إنساني يحقق الخير الأخلاقي للجميع.

وهكذا يتضح أنه لا قيام للأخلاق بدون هذا التوافق

والتنافس بين خير الإنسان وخير الغير، أي إنه لا بد لكل فرد من أن يقيم نوعًا من التوازن بين مطلبي تحقيق الذات والتضحية بالذات، وينبغي ألا تتعدى حريته هذا الإطار.

وإذا كانت الحرية تعد حقًّا طبيعيًّا لكل إنسان، وإذا كان المجتمع الإنساني السوي لا يستقيم إلا إذا كانت حرية الأفراد فيه حرية واعية ومسئولة ومنضبطة بالضوابط الأخلاقية الفطرية المغروسة في نفس كل إنسان فإن السؤال الذي يطرح نفسه في عالم اليوم بإلحاح هو: ما صلة ذلك كله بما يتم الترويج له اليوم في الدول المتقدمة باسم الحرية وباسم حقوق الإنسان من ممارسات شاذة تناقض الطبيعة الإنسانية، ويراد تصديرها، بل وفرضها على بقية دول العالم مثل الشذوذ الجنسي وزواج المثليين؟

ويقال تبريرًا لهذه الممارسات: إن الإنسان حر في التصرف في جسده، ومن هنا فإن من حقه إقامة مثل هذه العلاقات الشاذة التي أصبحت ممارسات مشروعة ومعترفًا بها قانونًا في بعض الدول المتقدمة، وباسم حقوق الإنسان تلام الدول التي لا تريد أن تعترف بهذه الحقوق المزعومة وتوصف بالتخلف والرجعية، وقد يصل الأمر إلى التلويح بقطع المساعدات عنها إذا لم تبد مرونة في هذا الشأن.

إن الإنسان -الذي كرمه الله بأن نفخ فيه من روحه

وجعله خليفة له في الأرض ووهبه عقلًا يميز به الخير من الشــر والنافع من الضــار - إذا أراد أن يظل محتفظًا بهذا التكريم الإلهي ومتمســكًا بإنسانيته كإنسان بكل ما يعنيه ذلك من معنى، فإنه سيظل صامدًا أمام هذه الانتكاسة التي تريد له أن يتنازل عن إنسانيته ويرتد إلى عالم الحيوان، بل إلى ما هو أدنى من ذلك، ولعل الداعين إلى هذه الانتكاســة في عالم اليوم تنطبق عليهم الآية الكريمة:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾

(الأعراف: ١٧٩)

(٥)

خواطر حول الجهود العلمية الإسلامية بين الماضي والحاضر

تمهيد:

هناك مقولة سبقت الإشارة إليها تقول: «الفلسفة بنت الدين وأم العلوم» وتعتبر هذه المقولة تعبيرًا صادقًا عن مدى الصلة الوثيقة التي تربط العلوم والمعارف الإنسانية التي تمثل حلقات متصلة تلبي حاجات وتطلعات الإنسان، فكما هو في حاجة إلى الدين فإنه أيضًا في حاجة إلى الفلسفة وسائر العلوم، ومن هنا فإن افتعال خصومة بين هذه العناصر أمر لا مبرر له وليس في مصلحة الإنسان، ولا يعبر عن حقيقة جوهره.

صحيح أننا نعيش الآن عصر العلم، عصر ثورة المعلومات والاتصالات والطفرة التكنولوجية الكبرى، ولكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن الإنسان يمكن أن يستغني تمامًا عن الدين وعن سائر العلوم العقلية لصالح العلوم الطبيعية.

وصحيح أيضًا أن التطورات العلمية الهائلة قد تصيب الإنسان بالغرور وتدفعه إلى الاعتقاد بأن التقدم المادي هو كل شيء، ولكنه في نهاية الأمر يجد نفسه مدفوعًا إلى الحنين إلى الاعتقاد وإلى البحث عن شيء يملأ فراغ نفسه

ويشــعره بالاطمئنــان، وهذا الحنين في حــد ذاته يدل على أن هناك حاجات نفســية وجدانيــة وحاجات عقلية لا يجوز تجاهلها إذا أراد الإنســان لنفسه الســعادة في هذه الحياة، ويذكرنــي ذلك بكتاب كنا نقرؤه ونحــن طلاب في المرحلة الثانويــة بعنوان «الله يتجلى في عصر العلم» لمجموعة من أبــرز العلماء في مختلف العلــوم في الغرب أجمعوا على أن إنجازاتهم العلمية قادتهم إلى الإيمان.

العلم والحضارة:

والمتتبع لنشأة الحضارات الإنسانية يجد أنها قامت على أســاس من الدين والعلم معًا، ومن هنا اهتم الوحي القرآني فــي أول ما نــزل منه بلفت الأنظــار والعقول إلــى مفاتيح الحضارة قبل أن يتحدث عن أي شــيء آخر يتعلق بالعقيدة وأمور الآخرة، فكانت الآيات الخمس الأولى من سورة العلق التــي تأمر بالقراءة مرتين وتشــيد بالعلــم، والقلم الذي هو وسيلة تدوين العلم، وبالإنســان حامل هذا العلم، وكان هذا الوحي عودًا على بدءٍ، فقبل أن يُهبط الله آدم إلى الأرض علمه الأسماء كلها، أي أعطاه مفاتيح الحضارة التي يستطيع من خلالها أن يلبي الأمر الإلهي بإعمار الأرض في قوله تعالى:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾

(هود: ٦١)

أي: طلب منكم عمارتها وصنع الحضارة فيها.

ولتأكيـد ذلك جعل الإســلام طلب العلــم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وقد أدرك المسلمون الأوائل كل هذه المعاني وســاروا على نهجها فكانت لهم إســهاماتهم التي لا تنسى فــي تقدم العلوم وازدهار الحضارة، وإذا كانت الحضارة لا تقوم إلا بالعلم، فإن منهج العلم فريضة أيضًا ويعد جزءًا لا يتجزأ من العلم.

ومناهــج العلــوم تختلف باختــلاف موضوعاتها من علم إلى آخر، وقد أسهم أسلافنا إسهامات جادة في تقدم العلوم ومناهجهــا، وكان لا بــد في هذا الصدد مــن تحديد الحدود بيــن العلوم المختلفة حتى لا تختلط الأمــور، ومن هنا كان «إحصاء العلوم» للفارابي بوصفه أول محاولة جادة في هذا الصدد استفاد منها الأوروبيون كثيرًا في العصور الوسطى في أوروبا حتى بداية القرن السادس عشر.

وقــد تحــدث القاضي صاعــد بن أحمــد الأندلســي عن هــذا الكتــاب فقال: «وله كتاب شــريف في إحصــاء العلوم والتعريف بأغراضها، ولم يســبق إليــه ولا ذهب أحد مذهبه فيه، ولا يســتغني طلاب العلوم كلِّها عن الاهتداء به وتقديم النظر فيه»[٣٧].

والعلــم - كما نعرف مــن تراثنا- رحم بين أهله وتواصل بين الأجيال والحضارات، وكل جيل يضيف إليه شيئًا جديدًا

(٣٧) نقلاً عن تقديم المحقق د. عثمان أمين للطبعة الثانية لكتاب إحصاء العلوم.

مهد به السبيل لمن يجيء بعده، ولن يكتمل بناء صرح العلم طالما كان هناك إنسان في هذا الوجود، فالعلم نسبي وقابل للتطور المستمر، والكلمة الأخيرة في العلم أو في الفلسفة لم يقلها جيل بعينه وإلا أصيب الفكر بالجمود وحكم عليه بالعقم الأبدي.

ومن أجل ذلك ستظل محاولات التجديد والتطوير والإبداع متواصلة بلا انقطاع طالما كان هناك إنسان في هذا الوجود، ومهمة اللاحق وفرصته أفضل دائمًا من فرصة السابق عليه، وقد أشار إلى ذلك أبو بكر الرازي في حديثه عن الفلسفة حيث يقول: «اعلم أن كل متأخر من الفلاسفة إذا صرف همته إلى النظر في الفلسفة وواظب على ذلك، واجتهد فيه، وبحث عن الذي اختلفوا فيه لدقته وصعوبته عَلِمَ عِلْمَ من تقدمه منهم، وحفظه، واستدرك بفطنته وكثرة بحثه ونظره أشياء أخرى؛ لأنه مهر بعلم من تقدمه، وفطن لفوائد أخرى واستفضلها، إذ كان البحث والنظر والاجتهاد يوجب الزيادة والفضل».

وما قاله أبو بكر الرازي في هذه النص عن الفلسفة ينطبق بطبيعة الحال على سائر العلوم، فالعلم قسمة مشتركة بين بني البشر، وهناك تفاعل مستمر بين الأجيال والحضارات، وكل جيل يبدأ من حيث انتهى الآخرون، وكل جيل مدين للجيل السابق عليه بما قدمه من عطاء.

ومن هنا فإنه لا يجوز لأي حضارة أن تدعي لنفسها أنها أنجزت ما أنجزت دون أن تستفيد من غيرها بشكل مباشرٍ أو غير مباشر، سواء كان هذا الإنجاز تعديلًا أو تصحيحًا لما قاله السابقون، أو إضافة جديدة للبناء العلمي الذي هو ملك للبشرية كلها، فالعقل الإنساني واحد لدى جميع البشر وهو: «أعدل الأشياء قسمة بين الناس» كما يقول ديكارت.

ولا شك في أن الحضارة الإسلامية قد استفادت من الإنجازات العلمية والفكرية السابقة عليها كما أفادت بدورها الحضارة الأوروبية الحديثة بما قدمته لها من عطاء في العصور الوسطى عن طريق الترجمات العديدة من خلال المعابر الحضارية في كل من الأندلس وجزيرة صقلية، وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا يوجد مبرر لمحاولة البعض على كلا الجانبين إنكار أو نفي هذا التواصل العلمي والحضاري بين الثقافات ويؤكد القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الجاثية:١٣)

أن السماء والأرض وما بينهما مجال للنظر والبحث العلمي، وختام الآية يبين لنا أن ذلك لن يكون متاحًا إلا لهؤلاء الذين يتفكرون، أي الذين يستخدمون عقولهم في البحث والنظر بصرف النظر عن الجنس أو الدين أو العرق

أو اللغة، فالمجال مفتوح لكل من لديه اســتعداد لاستخدام عقله وفكره فيما خُلق له.

وفــي ضوء هــذه الآية الكريمــة أود أن أطرح ســؤالًا عن جدوى ما يُبذل من جهود مشــكورة في مجال أسلمة العلوم لتطوير حياتنا الإســلامية، ألم يكن مــن الأجدى أن نختصر الطريــق ونبدأ مــن حيث انتهى الآخرون حتى نســتطيع أن نلحــق بركب التطور العلمي؟ لقــد انطلقت هذه الدعوة منذ حوالي ربع قرن من الزمان، فما الذي قدمته للارتقاء بالعلم في مجالاته المختلفة في العالم الإسلامي؟

ولســتُ أنكر أن طرح مثل هذه الأسئلة سيَصدم البعض، ولا أنكر أني كنت في ســنوات ســابقة معجبًــا بأطروحات أســلمة العلوم، ولكني وجدت - وهذا رأي شخصي- أن من الأفضل أن توجه هذه الجهود إلى البحث العلمي نفسه وإلى أخلاقيــات العلم التــي أصبحت الحاجة إليهــا مُلحة بعد أن وصلنا إلى مرحلة الاستنساخ البشري وما قد يَجُره ذلك من عبثٍ بالجينات البشرية، وما لذلك كله من آثار بعيدة المدى على حياة الجنس البشري كله.

ولســتُ أريدُ بطرحِ هذه الأسئلة التقليل من شأن أصحاب هــذا الاتجــاه، ولا أشــك في إخلاصهــم ونواياهم الحســنة، فالخلاف في الرأي لا يفســد للود قضية، وأنا بطبعي أحترم كل الآراء، ولكن احترام الرأي شيء والقبول به شيء آخر.

وأود في هذا المقام أن أشـير إلى أن جائزة الملك فيصل التي تمنح سـنويًّا لعدد من العلماء في مختلف العلوم على مسـتوى العالم يـكاد ينحصر الفـوز بها في علـوم الطب والفيزيـاء وغيرها في علماء من الغرب من غير المسـلمين، الأمـر الذي يـدل على تخلـف العلمـاء المسـلمين في هذه المجـالات، فالجائـزة إذن تمنح للجدير بهـا بصرف النظر عـن عقيدته أو جنسـه أو عرقـه، وهذا أمر يحمـد للجائزة وللقائمين عليها.

وهنـاك نقطة أخـرى مهمـة أود التطـرق إليهـا تتعلق بالتراث العلمـي في الحضارة الإسـلامية، فالعودة إلى هذا التراث وإبرازه لتأكيد الإنجازات الرائعة التي قام بها العلماء المسلمون في السـابق أمر مطلوب ومشكورٌ، ولكن بشرط أن يكون ذلك في إطار حدود معينة، أي في إطار اسـتعادة الثقة بأنفسنا حتى نستمر في السير على الدرب، فلسنا أقل فـي عقولنا وقدراتنا من السـابقين، ولكننا فـي حاجة إلى استعادة هذه الثقة حتى لا نصاب بمركب النقص إزاء الدول التي سـبقتنا في التقدم العلمي والحضاري، على الرغم من أن هـذه الدول كانـت تعيش في ظلام دامـس في العصور الوسـطى في الوقت الذي كانت فيه الحضارة الإسلامية في قمة ازدهارها وعطائها.

ومـن هنا فإنه لا يجـوزُ لنا أن نضيع الكثيـر من الوقت

والجهـد أو الوقـوف عند حد اجتـرار الذكريـات أو التغني بالأمجـاد، فقيمة المرء بما يقدمه من عطاء وليس بما قدمه أسلافه، أو كما قال الشاعر ابن الوردي:

لا تقـل أصلـي وفصلـي أبـدًا
إنمـا أصـل الفتـى مـا قـد حَصَّلَ

ورحـم الله جمـال الديـن الأفغانـي، فقـد زاره المفكر الإسلامي «شكيب أرسلان» في الأستانة حينما كان شبه أسير لدى سلطات الخلافة العثمانية، ودار الحديث حول ما روي من أن العرب قد عبروا المحيط الأطلنطي قديمًا واكتشـفوا القارة الأمريكية قبل أن يكتشفها «كرستوفر كولمبوس» عام ١٤٩٢م، وقـد رد عليه الأفغاني بقوله: «إن الشـرقيين كلما أرادوا الاعتـذار عما هم فيه مـن الخمول الحاضر قالوا: أفلا ترون كيف كان آباؤنا؟ نعـم قد كان آباؤكم رجالًا، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتـم، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم»[٣٨].

ولا شك في أن التراجع الحضاري في العالم الإسلامي قد بدأ عندما قنع المسـلمون بما فعله الأجدادُ، وعندما شـاعت مقولات تنشُر اليأسَ في النفوس تقول بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، وأنه لم يترك الأول للآخر شيئًا، وشاع ذلك في كل مجـالات العلوم، عقلية أو طبيعيـة أو حتى دينية، ومن

(٣٨) زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص ١٠٢.

هنا خرجنا نحن المسلمين من حلبة السباق، وأصبحنا كما هو الحال اليوم في مؤخرة الركب.

وهذا ما دفع الشيخ محمد عبده إلى أن يعيب على الفقهاء -على سبيل المثال- دعوتهم الناس إلى تقليدهم والعمل بما جاء في كتبهم حيث يقول:

«جعل الفقهاء كتبهم هذه- على علَّاتها- أساس الدين، ولم يخجلوا من قولهم: إنه يجب العمل بما فيها وإن عارض الكتاب والسنة، فانصرفت الأذهان عن القرآن والحديث، وانحصرت أنظارهم في كتب الفقهاء على ما فيها من الاختلاف في الآراء والركاكة».

وقد جرَّ ذلك وراءه موجاتٍ من التقليد الممقوت والتعصب الأعمى، وتم إهمال العقل ومقرراته والعلم وحقائقه، فانتشرت الخرافات والأوهام، وما قصة الشجرة التي زعم أنها تحمل لفظ الجلالة أو صيغة الشهادة بعيدة عنا، فقد اهتمت بها وسائل الإعلام وانهال الناس من كل صوب على الشجرة لرؤية المعجزة والتبرك بها، وكل هذه خرافات وأوهام ما أنزل الله بها من سلطان.

إننا نتطلع إلى نهضة علمية حقيقية في عالمنا الإسلامي، ونرجو أن تكون مراكز البحوث العلمية المنتشرة في العالم الإسلامي والمؤتمرات العلمية العديدة التي تعقد هنا وهناك بمثابة حافز يدفع إلى التجديد والإبداع حتى تنتقل الأمة من

حالــة التراجع الحضاري التي اســتمرت عــدة قرون إلى ما نرجوه لها جميعًا من التقدم والازدهار؟

ولكــن الأمنيات وحدها لا تصنع شــيئًا، فتغيير العقليات هــو البداية، وتبــدل الأحوال لن يســقط علينا من الســماء، فزمن المعجزات قد انتهى منذ وفاة الرســول ﷺ، والقانون القرآنــي هو الحاكم في هذا الصــدد، وهو قانون واضح كل الوضــوح لكل من كان له قلب أو ألقى الســمع وهو شــهيد، يقول القرآن الكريم في ذلك:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

(الرعد: ١١)

(٦)

فلسفة المقاومة[٣٩]

عندمـا يُطلقُ مفهـوم المقاومة في عصرنـا الحاضر على المسـتوى الإعلامـي ينصـرف الذهن مباشـرة إلـى مقاومة الشـعوب لما تتعرض له من ظلم واضطهـاد من ناحية، كما تعبـر فـي الوقت نفسـه عن الأمل في المسـتقبل مـن ناحية أخـرى، فهي إذن مقاومة للألم ماديًّا كان هذا الألم أم معنويًّا من أجل توليد الأمل.

والأمـر الجديرُ بالملاحظة هنـا هو أن حروف كلمة ألم في اللغة العربية هي نفسـها حروف كلمة أمل مع تبادل المواقع بين الحرفين الثاني والثالث وأعتقد أن الارتباط بين الكلمتين ليـس فقط في مـادة الكلمة ولكن أيضًا فـي التطور الواقعي لانبثـاق الأمل من أعماق الألم عن طريق المقاومة ولعله يمكن القـول بأنـه لولا الألم - أيًّـا كان نوعه - لمـا كان هناك دافع للمقاومة وتطلع مشروع نحو الأمل في تغيير الواقع.

والتحديات التي تواجه الأمم والشـعوب على مدى التاريخ تبيـن لنا أن هناك شـعوبًا قاومت وانتصرت وشـعوبًا أخرى استسـلمت وانهزمت، والحضارة ذاتها تعد مقاومة للتخلف، ويفسـر «توينبـي» الحضـارة بأنهـا رد معين يقـوم به أحد

---

(٣٩) كلمة افتتاحية للندوة السـنوية للجمعية الفلسفية المصرية عام ٢٠٠٦ م تحت عنوان (فلسفة المقاومة).

الشــعوب أو الأجناس فــي مواجهة تحد معيــن وهذا التحدي الــذي قد تمثله الطبيعة يختلف في مســتواه وبالتالي تختلف فعالية الرد من جانب الشعوب بين احتمالات ثلاثة:

فإمــا أن تقوم الشــعوب المعنية - عن طريــق المقاومة - بوثبــة إلى الأمام، وإما أن تُصــاب بالتوقف والجمود، وإما أن يلفها الفناء بردائه.

وهذا يعني أن المقاومة ضرورة حياتية، فالمقاومة عصبُ الحياة بجميع أبعادها ابتداءً من مقاومة الجسم لكل ما يحيط به من أمراض ومرورًا بمقاومة التحديات الطبيعية والكوارث البيئية لاســتمرار الحياة وبناء الحضارة حتى تنعم الشــعوب في ظلها بالأمن والاستقرار والسلام.

ولكن السؤال الجوهري هنا هو: ما هي القاعدة التي تستند إليها فلسفة المقاومة؟ ودون الدخول في مناقشات لا داعي لها حول تعريف مفهوم «فلسفة المقاومة» لدى بعض الاتجاهات الفلســفية أو السياســية المعاصــرة نرى أنــه لا يوجد هناك أساس فلسفي للمقاومة غير العقل الإنساني بل يمكن القول: إن المقاومــة تفقد مصداقيتها ومبرراتها إذا تخلت عن العقل ومن هنا يمكن القول: إن تفعيل دور العقل يعد أفضل ســبيل للمقاومة على جميع الأصعدة وكل صور المقاومة تعتمد على العقل الإنساني، فمقاومة الاحتلال والاضطهاد والظلم تحتاج إلــى العقل ليخطط ويعد العدة حتى يمكن أن تصل المقاومة

إلــى تحقيــق الهدف المنشــود وهكـذا بقية صــور المقاومة ومن بينها-على ســبيل المثال لا الحصر - مقاومة الخرافات والانحرافات والســلبيات في المجتمع ومقاومة الجهل والفقر والمرض ومقاومة الفســاد والمفسدين وبصفة عامة مقاومة التخلف بجميع صوره وأشــكاله وقد تكــون المقاومة بالفكر أو بالعلم أو بالسلاح أو بالدين.

والدين نفسه قد أمر بمقاومة المنكر بالفعل أو بالقول أو بالقلب وهذا أضعف الإيمان كما جاء في الحديث النبوي المشهور[٤٠]، كما أمر القرآن الكريم برد العدوان في مختلف صوره وأشكاله.

ولكن العقل ســيظل هو الذي يحدد لنا من نقاوم؟ أو ماذا نقاوم؟ ومتى وأين نقاوم؟ وما هو الأســلوب الأمثل للمقاومة؟ ومتــى نتوقف؟ ومتى نواصل المقاومــة؟ كما أن العقل أيضًا هو الذي يقوم بتقييم نتائج المقاومة.

ومن الطبيعي أن تبدأ المقاومة من داخل النفس الإنسانية ولعل ذلك يكون أوضح ما يكون في التصوف الذي يعتمد على مقاومة إغراءات النفس ليصــل بصاحبه إلى مرحلة «التخلية» التي تهيئ النفــس لمرحلة «التحلية» كما يقــول المتصوفة، إن المقاومة لها -بطبيعة الحال - وســائل متعددة والعقل هو الذي يضبط إيقاع المقاومة ويصحح لها مسارها ويصل بها إلى الهدف المنشود.

---

(٤٠) أخرجه مســلم (٤٩) من حديث أبي ســعيد الخدري -رضي الله عنه- بلفظ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يســتطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» وفيه قصة.

وليســت هناك مقاومة لــذات المقاومــة دون أن يكون لها هدف معقول يبرر مشروعيتها وإلا ستكون مقاومة عبثية.

وقد كانت الفلســفة دائمًا - ولا تزال وستظل - أبرز صور المقاومــة تقاوم الجهل والســطحية وضيــق الأفق والتعصب والتطــرف لتضع مــكان ذلــك العلــم والتعمق وســعة الأفق والتسامح والاعتدال.

وهــذه كلهــا عناصــر ضرورية لمنــع الظلــم والاضطهاد والعدوان على حقوق الإنسان ومنع الطغيان في شتى صوره وأشــكاله وهدف المقاومة هو ســلام النفس وسلام المجتمع وسلام العالم حتى يتحقق حلم الفلاسفة في كل العصور وهو الوصول بالبشــرية إلــى النموذج الإنســاني المثالي وإذا كان تحقيــق مثل هذا النموذج يعد أمرًا صعــب المنال فعلى الأقل يكفي الاقتراب منه لتغليب الأمل وتشــجيع أجيال المســتقبل على الســير في نفــس الطريق لتحقيق ما لــم تحققه الأجيال السابقة.

(٧)

قيمة الوقت في حياتنا

يشتمل تراثنا العربي القديم على العديد من الأمثال الشهيرة المعبرة عن قيمة الوقت والتي لا نزال نرددها حتى اليوم ومنها على سبيل المثال لا الحصر: «الوقت من ذهب» و«الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك».

وتأكيدًا لأهمية الوقت في حياة الناس أفرادًا وجماعات يبين لنا النبي ﷺ أن الوقت يعد إحدى المسئوليات الأساسية التي سيسأل عنها الإنسان يوم القيامة وذلك في قوله: «لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْد يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ.. إلخ»[٤١] وعُمُرُ الإنسان هو مجموع أوقاته التي عاشها في هذه الحياة، فهو مسئول عن كل لحظة من لحظات هذا العمر: ماذا عمل فيها وهل استفاد منها وأفاد غيره ومجتمعه بهذه الأوقات أو لا؟

ويعبِّر أميرُ الشعراء أحمد شوقي تعبيرًا صادقًا عن وجود عنصر مهم في داخل كل منا يُشعرُنا بصفةٍ دائمةٍ بقيمةِ الوقت وأهميته البالغة في حياتنا فيقول:

---

(٤١) أخرجه الترمذي (٢٤١٧) من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

دقـاتُ قلـب المـرء قائلـةٌ لـه
إن الحيـاةَ دقائـق وثـوان

ومـن كلِّ ذلـك - وغيـره كثيـر - يتضح لنا مـدى الأهميَّة الكبيرة لقيمة الوقت في تراثنا القديم والحديث ويعبّر ذلك كله عن الحرص الشـديد على ضرورة استغلال الوقت في أعمال مفيدة للشـخص أو لأسـرته أو لمجتمعه وبذلك تنهض الأمم وتتقدم الشـعوب، فكل فرد يبني ويقدم ما يسـتطيع تقديمه و«كلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلِقَ له»[٤٢] كما جاء في الحديث الشريف.

ولا يجـوز لأي فـرد أن يتقاعس عـن تقديم ما يتيسـر له تقديمـه بحجة أنه لا يملك ما يقدمه للناس، فالكلمة قد يكون لهـا أثـر كبير في دفـع الآخرين إلى العمـل والإنتاج بل حتى مجـرد الابتسـامة قد تدخل السـرور والبشـر علـى الآخرين وتحفزهـم إلى مزيد من العطاء ومن هنا كان قول النبي ﷺ: «تبسُّـمُك في وجهِ أخيك صدقـةٌ»[٤٣] وقولـه: «لا تَحقِرَنَّ من المعروف شـيئًا ولو أن تَلقى أخاك بوجهٍ طلقٍ»[٤٤] أي: بوجه بشوش، فالأمرُ الذي لا شكَّ فيه أن الحالة النفسية للإنسان لها تأثيرها الكبير على سلوكه في حياته سلبًا أو إيجابًا وينعكس ذلك بطبيعة الحال على حسن أو إساءة استخدامه للوقت.

---

(٤٢) أخرجه البخاري (٧٥٥١) ومسلم (٢٦٤٩) من حديث عمران بن حصين -رضي الله عنه-.

(٤٣) أخرجه الترمذي (١٩٥٦) وابن حبان في صحيحه (٤٧٤ - الإحسان) واللفظ له، من حديث أبي ذر -رضي الله عنه- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٤٤) أخرجه مسلم (٢٦٢٦) من حديث أبي ذر -رضي الله عنه-.

ولا يختلـف العقلاء فيما بينهم على أهميَّةِ الوقتِ وحسـن اسـتغلاله في دفعِ عجلة الحياة وتطويرها ولكن السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام هو: هل ما نقتنع به نظريًّا نطبقه بالفعل عمليًّا أم أن هناك فجوة كبيرة بين الفكر والفعل؟

إن واقـع الحال يُبَيِّنُ لنا أن هنـاك فجوة تفصل بين الفكر والعمـل، فكثير من الأمور التي نقتنـع بها ونؤمن بجدواها لا تخـرج في أغلب الأحيان عـن دائرة النظر إلـى دائرة العمل، فكلنـا يؤمن بأن الوقت مسـئولية وأن كل دقيقة تمر علينا ما هي إلا اقتطاع جزء من عمرنا المحدد في هذه الحياة وأنها إذا ذهبت فلن تعود أبدًا.

وعلـى الرغم من ذلك فإن الكثيرين يُبـدِّدون أوقاتهم بكل سـهولة ومـن بيننا أنـاس تخصصوا فـي تضييـع الوقت أو بتعبيـر أدق: في قتـل الوقت كما لو أن أوقاتنـا عدو لا بد أن نقتله ونتخلص منه ومن ناحية أخرى فإننا لا نفرِّق كثيرًا بين أوقات الجد وأوقات اللَّهو، بل نخلط بينهما، الأمر الذي يجعل حياتنا تسير دون نظام يحكم سيرها ويضبط حركتها وهكذا لـم يعد الوقت لدى الكثيرين من ذهـب يحرصون عليه - كما يقـول المثـل القديم - وإنما أصبح من تـراب بل أرخص من التراب.

ورحم الله العالم الدمشقي المعروف جمال الدين القاسمي - الـذي كان معاصرًا للشـيخ محمد عبـده - فعندما كان هذا

العالــم يمــر في طريقه المعتــاد يوميًّا في موطنــه كان يرى المقاهــي مكتظة بالجموع الغفيرة من الناس الذين يضيعون أوقاتهــم فيما لا طائل من ورائه فيعبر عن حســرته على عدم الوعــي بقيمة الوقت قائلًا: كم أتمنى أن يكون الوقت مما يُباعُ لأشتري من هؤلاء جميعًا أوقاتهم لأنفقها فيما يفيد.

صحيــح أن حيــاة الناس فــي الماضي كانت تســير ببطء ورتابة ولم يكن لديهم من وســائل الترفيه إلا القليل بالقياس إلى ما يشــهده عالمنا المعاصر ومن هنــا يمكن أن يُقال: إنه كانت لديهم مســاحة كبيرة من الوقت ولكــن الصحيح أيضًا أن الإنجــازات الرائعة والطفرة التكنولوجية الهائلة في عالمنا المعاصــر والتــي تحيط بنــا الآن من كل جانب قــد وفرت لنا الكثيــر مــن الوقت والجهــد، والفــرق بيننا وبين أســلافنا أو حتى معاصرينا فــي الأمم المتقدمة هو الوعــي بقيمة الوقت واستغلاله الاستغلال الأمثل.

وعلى الرغم من أن العصر الحاضر قد هيأ لنا - كما أشرنا- وسائل عديدة اختصرت الزمان والمكان ووفرت لنا المزيد من الوقت الذي يمكن اســتغلاله في الأعمال المفيدة، فإن غالبية الناس في عالمنا الإسلامي لا يزالون يفتقدون الوعي الحقيقي بقيمــة الوقت، هــذا الوعي الذي من شــأنه أن يدفع المرء إلى العلم المنتج ويحفزه إلى الإبداع وفي المقابل فإن عدم الوعي بالوقت يشُدُّ المرء إلى التخلف والكسل العقلي والعضلي معًا،

ومن هنا يمكن القول بأن الفرق بين إنسان متحضر وإنسان غير متحضر هو الإحساس بالوقت، فالوعي بقيمة الوقت مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالحضارة والتحضر.

ومن هنا ذهب المفكر الإسلامي الراحل مالك بن نبيٍّ إلى جعل الحضارة نتيجة لثلاثة عناصر أساسية هي: التراب (المادة) + الوقت + الإنسان وبدون أي عنصر من هذه العناصر لا تقوم حضارة؛ فالإنسان هو صانع الحضارة والمادة ضرورية لصنع الحضارة، والوقت هو الوعاء لصنع الحضارة.

وإذا كان الوقت هو الوعاء الذي يمارس فيه الإنسان نشاطه في الحياة فإن ذلك يعني ارتباط قيمة الوقت بقيمة العمل، فالوقت بلا عمل فراغ، والعمل لا يمكن أن يتم إلا إذا كان هناك وقت لإنجازه، والفراغ في حد ذاته يمكن أن يكون نعمة، كما يمكن أن يكون نقمة، ومن أجل ذلك يقول النبي ﷺ : «نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحةُ والفراغُ»(٤٥)؛ فالَّذي لا يستعملُهما فيما ينبغي وفيما خُلِقا من أجله فقد ظلم نفسه وبذلك تنقلب النعمة إلى نقمة.

وقد أعطى الله الإنسان العقل ليميز به الخير من الشر، والنافع من الضَّار، وهذا يعني أن عليه أن يتحمل مسئوليته الإنسانية وأن يبذل أقصى الجُهد لوضع كل شيء في إطاره

---

(٤٥) أخرجه البخاري (٦٤٢١) من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-.

الصحيح، ومسئولية الإنسان الحضارية في هذا الوجود تحتم عليه أن يكون أمينًا في تحمُّل هذه المسئولية ليحقق ذاته ويؤكد هويته الإنسانية من ناحية، وليكون جديرًا في الوقت نفسه بشرف خلافته لله في الأرض من أجل إعمارها بالخير في جميع المجالات من ناحية أخرى، وهذا أمر لن يتحقق إلا بالتوظيف الأمثل لقيمة الوقت.

ومن هنا اهتم الدين بقيمة الوقت ونبَّه إليها، وحضَّ على الالتزام بها وحسن التصرُّف فيها، وقد أقسم الله بالوقت في العديد من آيات القرآن الكريم؛ ليبيِّن لنا مدى الأهميَّة البالغة لهذه القيمة في حياة الإنسان، وقد جاء القسم في هذه الآيات بالفجر وبالضحى وبالعصر وبالليل وبالنهار، وكلها تمثل أجزاء من الوقت، والله لا يقسم بشيء دون أن تكون هناك حكمة بالغة وراء ذلك يراد تعليمها للناس.

فإذا أقسم الله بالوقت، فالزمن أو الوقت مخلوق لله، ونحن أيضًا مخلوقون لله، ومن هنا فنحن مرتبطون ارتباطًا لا ينفصم بالزمن، وتفكيرنا يدور في إطار الزمن الذي لا يستطيع إنسان أن يتجاوزه، والزمن ينقسم إلى ماضٍ وحاضرٍ ومستقبلٍ، والإنسان العاقل يتذكر الماضي ليعتبر بما جرى فيه، ويعيش الحاضر مستفيدًا من دروس الماضي حتى لا يكرر أخطاءه أو أخطاء السابقين، ويخطِّطُ للمستقبل بهدف أن يكون أفضل من الماضي والحاضر معًا.

إن قضيــة الوقت قضية حياتية مصيريــة، ومن هنا فنحن في أشد الحاجة إلى عودة الوعي بقيمة الوقت وأهميته البالغة فــي حياة الناس أفرادًا وجماعات، حتى ننهض بأمتنا ونتقدم بمجتمعاتنا؛ فنحن نعيش اليوم في عصر السباقات العالمية، ولــم يعد لدينــا وقت لإضاعته فيمــا لا يفيــد، وإلا فإن الزمن ســيتجاوزنا ويسقطنا من حسابه، والتاريخ لن يرحمنا، وهذا مصير لا يرضاه عاقل لنفسه أو لأمته، ولا يتفق مع ما ورثناه من رصيد حضاري ضخم لا يزال شاهدًا على ما قدمه أسلافنا من عطاء غير محدود في جميع المجالات.

الفصل الثالث

قضايا معاصرة في ضوء تعاليم الإسلام

- الحضارة الإسلامية في مواجهة التحديات المعاصرة.
- الأمن المجتمعي في الإسلام.
- الحفاظ على حرمة أماكن العبادة.
- التجربة المصرية في تجديد الخطاب الديني.
- الشباب وبناء المستقبل.
- التواصل الإنساني.
- التواصل المعرفي بين التراث والمعاصرة.
- ظاهرة الزواج العرفي.

(١)

الحضارة الإسلامية

في مواجهة التحديات المعاصرة

تمهيد:

إن التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في العصر الحاضر تحديات كثيرة ومتنوعة وغير مسبوقة، وذلك بالنظر إلى ما طرأ على كل المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والأخلاقية والاجتماعية وغيرها... وذلك فضلًا عن الثورة العلمية والتكنولوجية وثورة المعلومات والاتصالات وتيار العولمة الجارف الذي يجتاح العالم المعاصر.

ومما يزيد الأمور تعقيدًا أمام عالمنا الإسلامي في ظل هذه الظروف والمتغيرات ما يعانيه من أزمات طاحنة ومشكلات خانقة متعددة الجوانب، ففي الوقت الذي تتلاحق فيه التطورات على جميع المستويات في مناطق العالم المتقدم إذا بنا نرى التخلف بكل أبعاده يخيم على العالم الإسلامي، وهذا التخلف واقع لا يجوز إنكاره على الرغم من القشرة الحضارية الظاهرية المستوردة التي يراها المرء في أنحاء شتى من العالم الإسلامي.

ولكننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن ننكر أن هذا التخلف الواضح، وهذا الواقع المحزن، منفصل عن النموذج الإسلامي الحضاري بمئة وثمانين درجة.

ولم تستطع الصحوة الإسلامية المعاصرة أن تقترب حتى اليوم بطريقة جدية من هذه القضية المصيرية الأولى، بل ظلت حتى يومنا هذا منشغلة بمحيط الدائرة، وببعض المظاهر الشكلية والأمور الهامشية، ومهتمة بالجزئيات دون الكليات، واختلط لديهما سلم الأولويات، فانقلبت الضروريات هامشيات والهامشيات ضروريات، وغابت معالم الرؤية الواضحة المتعلقة المستنيرة، وضاعت أصوات العقلاء من رواد هذه الأمة وسط ضجيج الانفعالات العاطفية التي تتصف في كثير من الأحيان بشدة حدتها وانفلات وعيِها بما يدور حولها في عالم اليوم، وواقعُ التَّخلف المشار إليه يمثل بالنسبة لعالمنا الإسلامي مشكلة حضارية بالدرجة الأولى، ويمكن القول بأن هذه المشكلة قد بدأت في الظهور عندما بدأ التراجع الحضاري في الأمة الإسلامية في أعقاب زوال الوجود الإسلامي في الأندلس أوائل العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي، ولم تتعاف الأمة من هذا التراجع الحضاري حتى الآن.

مظاهر التخلف:

وهذا التَّخلف الحضاري الراهن الذي لا تخطئه العين في عالمنا الإسلامي، يتجلى في العديد من المظاهر التي تشمل جميع المستويات الدينية والعلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها، وفي مقدمة هذه المظاهر -في رأينا - إهمال العلم والحضارة؛ حيث لم يعد العلم ولا

التقدم الحضاري يشكل أولوية في قاموس الأمة الإسلامية، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة، ولكن يكفينا أن نشير في هذا الصدد إلى أن نسبة الأمية في العالم الإسلامي تزيد على ٤٦٪ طبقًا للبيانات الصادرة عن المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

ومن الطبيعي أن تجر الأمية وراءها انتشار الخرافات والأوهام، وتغييب العقل واختزال الإسلام في مجرد أداء الشعائر المعروفة، والاهتمام المفرط بالشكليات بعيدًا عن جوهر الدين ومقاصده، وقد كانت نتيجة ذلك كله انتشار ظواهر التشدد والتطرف والغلو في الدين، وترتب على هذا التشدد في أمور الدين تحول سلبي في السلوك؛ حيث حلت الفظاظة والغلظة والعنف في التعامل محل الرحمة التي هي السمة الأساسية للإسلام، وانتشرت تهم الكفر والتحلل من الدين ضد كل من يعتقد - صوابًا أو خطأ - أنهم متساهلون في أمور الدين، أو من لهم وجهة نظر مخالفة لهؤلاء المتشددين، وغني عن البيان أن نشير إلى أن هذا التيار المتشدد كان وراء ظهور موجات الغلو والتطرف والتعصب والإرهاب التي جلبت على الأمة الإسلامية عواقب وخيمة لا تزال تعاني منها حتى اليوم.

وقد كان لذلك كله أثر سلبي على العلاقات بين شعوب الأمة الإسلامية على جميع المستويات وبصفة خاصة على المستويين السياسي والاقتصادي، فقد أصبح التشرذم هو

السمة الغالبة على علاقات الأمة الإسلامية فيما بينها، وأصبح التضامن الإسلامي مجرد شعار نردده في المناسبات، ولكنه شعار يخلو من أي مضمون، ويكفي أن نشير إلى أن حجم التجارة البينية بين دول العالم الإسلامي لا يتجاوز نسبة ٨٪ من حجم تجارة هذه الدول مع بقية دول العالم، والتعاون في بقية المجالات الأخرى ليس أسعد حظًّا من ذلك.

ومن هنا فإنه ليس بالأمر المستغرب أن نرى العالم الإسلامي - الذي يشكل سكانُه خُمس سكان العالم - قد أصبح مسرحًا مباحًا للصراعات المحلية والعالمية ومطمعًا للقوى الكبرى، وأصبح المسلمون في عالم اليوم أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام، فمعظم مشكلات العالم اليوم تجد لها مرتعًا خصبًا في قلب العالم الإسلامي، ومن أهمها قضايا فلسطين والعراق وأفغانستان والصومال والسودان وتشاد ولبنان وباكستان وغيرها، وذلك بالإضافة إلى مشكلات أخرى بين بعض البلاد الإسلامية ذاتها في مناطق مختلفة من العالم، ناهيك عن العديد من مشكلات الأقليات الإسلامية في مختلف القارات، ويقررون وحدهم في غيبة المسلمين أو حتى في حضورهم ما يشاءون في أخص خصوصيات هذه الأمة، الأمر الذي ينطبق عليه قول جرير:

ويُقضى الأمر حين تغيب تيمٌ

ولا يُستأمرون وهُم شهودٌ

وفي خضم هذه الأوضاع التي يعيشها عالمنا الإسلامي

نجـد هناك اتجاهًا قويًا لتعليـق كل أخطائنا وعيوبنا وتخلفنا على شـماعة الآخريـن دون أن نلتفت لنقد أنفسـنا والتعرف بطريقـة موضوعية علـى مواطن الخلل لدينـا، وغايات النقد الذاتي من شـأنه أن يسـاعد على تغييب وعينا بسـوء أوضاع عالمنا الإسلامي.

العالم الإسلامي والآخر:

ولا شـك فـي أن هـذه الأوضـاع الداخليـة كان لهـا أثرها السلبي على صورة الإسلام والمسلمين في الخارج، وبخاصة في عالمنـا المعاصر؛ فنحن لا نعيش وحدنـا في هذا العالم، ولا نسـتطيع أن نعزل أنفسنا عما يدور حولنا في عالم اليوم من متغيرات، وتيار العولمـة المعاصر يحمل إلينا الكثير من التحديات التي لا مفر أمامنا من مواجهتها.

فالعولمة السياسـية تتحدى أمتنا بما تحمله من شـعارات الديمقراطية وحقوق الإنسـان والتعددية السياسية، والعولمة الاقتصادية تتحـدى أمتنا بما تحمله من إزالـة الحواجز أمام تدفقـات التجارة والسـلع والخدمات والمـال والبرامج، وبما تحملـه أيضًا مـن تكتلات اقتصادية كبرى وشـركات عملاقة متعددة الجنسيات ومؤسسـات مالية ودولية، وهذا كله جعل البعض في الشرق وفي الغرب يصف هذه العولمة الاقتصادية بأنها عولمة متوحشـة تجعل الغني يزداد غنى والفقير يزداد فقرًا.

أمـا العولمة الثقافيـة فإنها تتحدى الأمـة بفرض ثقافتها

وقيمها وعاداتها الاجتماعية، الأمر الذي يهدد ثقافتنا بالذوبان في ثقافة الأقوى ويطمس بالتالي هويتنا الإسلامية وشخصيتنا الحضارية.

وهـذا كله يعنـي أن أمتنا قـد أصبحت محاصـرة من كل جانب، وقـد تداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها - كمـا ورد فـي الحديث الشـريف[٤٦] - لا بسـبب قلة أعداد المسلمين، بل بسـبب كثرتهم العددية الضعيفة التي وصفها النبي ﷺ في الحديث المشـار إليه بغثاء السيل، وقد شجعت هـذه الأوضاع الآخرين للترويج لما يُسـمى بالفوضى الخلاقة في عالمنا الإسـلامي، وهذه الفوضى الخلاقة المزعومة ليست إلا دعـوة لإثارة الفتن والعصبيات والانقسـامات في أوسـاط المسلمين.

سبيل الخلاص:

وإذا كنَّا قد حاولنا أن نشـخص على سـبيل الإجمال - من وجهة نظرنا - أهمَّ أدواء الأمة الإسـلامية في عالمنا المعاصر والتحديات الداخلية والخارجية التي تتعرض لها، فإن السؤال الذي يفرض نفسـه في هذا المقام هو: ما السـبيل إلى إنقاذ الأمة من هذه الأزمة الخانقة؟

يقـول خصـومُ الإسـلام: إن هـذا الدين هو سـبب تخلف المسلمين، وما دام المسلمون متمسكين بهذا الدين فلن تقوم لهم قائمة، ويقدم هؤلاء النصح للمسـلمين بأن يفصلوا فصلًا

(٤٦) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

تامًّـا بين الديـن والحياة، ويُبعـدوا الدين تمامًـا عن التدخل فـي أمور الدنيا، ويتبعوا في هـذا الصدد النموذج الغربي في تهميـش الدين، هذا النموذج الذي أخـذ بيد الغرب إلى الأمام، وجعله اليوم في مقدمة دول العالم حضارة ورقيًّا، وقد يكون الأخـذ بالنموذج الغربـي حتميًّا في حالة مـا إذا لم يكن لدى المسـلمين خيارات أخرى تستند إلى ما لديهم من تراثٍ ديني وحضاري عريق.

وفـى هذا المقام نـود أن نؤكد أن الموقف الإسـلامي من الحضـارات الأخـرى موقف واضح لا لبس فيه، فالإسـلام لا يمنـع أتباعه من الاسـتفادة مـن تجارب الآخريـن وعلومهم وخبراتهم، وإذا كانت الحضارة الحديثة قد قامت على العلم، فإن العلم في الإسـلام ـ كما هو معروف ـ يعد فريضة على كل مسـلم ومسـلمة ـ كما جاء في الحديث النبوي الشريف ـ[٤٧] كمـا أن الحضارة في الإسـلام تأخذ أيضًـا حكم العلم فتكـون هي أيضًا فريضـة؛ لأن الطلب الإلهي بإعمار الأرض في قوله تعالى:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)

لا يتحقق إلا بالعلم، ومن هنا وجدنا أن الآيات الأولى من الوحي الإلهي على محمد ﷺ كانت منصبة على مفاتيح الحضارة.

---

(٤٧) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٥ – ٣٠) عن أنس –رضي الله عنه–، مرفوعًا، بلفظ: طلب العلم فريضة على كل مسلم، وقال المزي - كما في اللآلي، المنشورة للزركشي: ص٤٣ -: هذا حديث روي من طرق تبلغ رتبة الحسن.

وقـد فتح القرآن الكريم باب البحث العلمي على مصراعيه أمـام كل الناس، ولم يضع حدودًا ولا سـدودًا في هذا الصدد، ويؤكد القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: ١٣)

وهذا يعني أن السماوات والأرض وما بينهما مجال البحث والدراسـة، وختـام الآية المشـار إليها في غايـة الأهمية؛ لأنه يشير إلى أن أبواب البحث العلمي لن تفتح إلا

﴿ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

أي لهولاء الذين يسـتخدمون عقولهم ويجندون إمكاناتهم الفكريـة للبحـث والدراسـة بصـرف النظر عـن معتقداتهم وأجناسـهم ولغاتهم، ومن المعلـوم أن التفكير يعد من القيم الحضارية الإسـلامية التي أكد عليها القـرآن الكريم فى كثير مـن آياته؛ لأنه الوظيفة الأساسـية للعقل الإنسـاني الذي يعد أعظـم نعمة أنعم الله بها على الإنسـان، ومن هنا لم يكن من قبيل المبالغة ما ذهب إليه المرحوم الأستاذ عباس العقاد من وصف التفكير بأنه فريضة إسلامية.

ولا شك في أن مبدأ الاجتهاد في الإسلام يرتبط أشد الارتباط بالتفكيـر؛ لأنه يعني إعمال العقل في فهم المسـائل والبحث عـن حلول ملائمة لها على المسـتويين الديني والدنيوي، وقد كان الاجتهاد هو الآلية التي أقرها الإسـلام للتجديد المتواصل في الحياة على جميع المستويات.

التفاعل الحضاري:

وقـد كان لهذه المبادئ والتعاليم الإسـلامية أثرها العميق في الانفتاح الحضاري للمسـلمين، كما كانت حافزًا لهم على التواصـل مع الحضـارات الأخـرى، فالحكمة ضالـة المؤمن أنـى وجدها فهو أحق بها ـ كماورد في الحديث الشـريف[٤٨] وطلبُ العلـم لا يقتصر على زمان أو مـكان محددين، فنحن مأمـورون أن نطلب العلم حتى ولو كان في أقصى مكان في الدنيـا ـ كما جاء في الأثر الإسـلامي المعروف: «اطلبوا العلم ولو فـي الصين»[٤٩]، أو حتى لو كان هـذا العلم في يد من لا يدينون بديننا.

وقد جعلَ الفيلسـوفُ العظيمُ ابن رشد من الاطلاع على ما لدى الآخرين واجبًا شرعيًا، ولكنه أوصانا أن تكون لنا في ذلك نظرة نقدية تميز بين النَّافع والضَّار، وفي ذلك يقول: «ننظر فـي الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه فـي كتبهم، فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسُررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم».

وقـد كان ذلك هو النهج الذي سـارت عليه الحضارة الإسـلامية، فقد تفاعلت مع الحضارات السـابقة عليهـا وأفادت منها دون حرج

---

(٤٨) أخرجـه الترمـذي (٢٦٨٧) وابن ماجه (٤١٦٩) من حديث أبي هريرة- رضـي الله عنـه-، بنحوه، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المخزومي يضعف في الحديث من قبل حفظه.

(٤٩) هي قطعة من حديث أنس رضـي الله عنه المتقدم في فرضية طلب العلم، أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله(٢٢).

وذلك من منطلق أن التراث الإنسـاني ـ الذي هو ملك للإنسانية كلها ـ يعتمد علـى الأخذ والعطاء، وأنه لا توجد أمة عريقة في التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث.

وإذا كنا قد سـبق أن أكدنا أن مشكلة المسلمين الأولى هي مشـكلة حضارية في المقام الأول، فإن التغلب عليها يجب أن يكون في مقدمة أولويات أمتنا الإسلامية، فليس هناك أمامها خيـارٌ إلا خيـارُ العلم والبنـاء الحضاري، ويمكـن القول بأن البنـاء الحضاري الذي يعني التقدم على المسـتويين المادي والروحي قد أصبح اليوم بالنسـبة للمسلمين فرض عين على كل مسـلم ومسلمة، كما هو الحال بالنسبة للعلم، وهذا أمر لم يعد ترفعًا، وإنما هو قضية مصير، وعلى المسلمين أن يدركوا ذلـك جيدًا وإلا فإن الزمن سـيتجاوزهم ويطـوي صفحتهم، وهذا أمر لا يرضاه عاقل لأمته.

وحتى نصل حاضرَ أمتنا بماضيها العريق فإننا في حاجة إلـى العـودة إلـى التواصل مع أصـول ومقومـات حضارتنا الإسـلامية فـإن ذلـك من شـأنه ـ إذا أُحسـن توظيفـه ـ أن يفسـح المجال مرة أخرى أمام المسـلمين ليستعيدوا دورهم الحضـاري المفقـود، ويحتلـوا مكانهم اللائق بهـم في عالم اليوم، وبذلك يتم التمكين لهم في الأرض، وبالتالى يفرضون احترامهـم على الآخرين، بل إن الإسـلام قد جعل التمكين في الأرض سـبيلًا إلى التمكين للدين وتحقيق فرائضه، وذلك في قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾

(الحج: ٤١)

ويمكن القول بناء على كل ما سبق: بأن الحضارة في التطور الإسلامي تعني تحقيق المشيئة الإلهية في عمارة الأرض ماديًّا ومعنويًّا، وبذلك يحقق الإنسان ذاته بوصفه خليفةً لله في الأرض، وبالتالي يكون في صلة مستمرة بالله خالق الكون، وهذه الصلة كفيلة بأن تصحح له دائمًا مساره على الأرض حتى لا يضل الطريق.

المسلمون والعولمة

ومن البديهي أن قوة المسلمين الحضارية ستجعلهم قادرين على مواجهة كل التحديات الخارجية التي أتت بها العولمة المعاصرة، ونحن ابتداء لسنا مع أو ضد العولمة ولكن مع النظرة النقدية الواعية للعولمة ولغيرها من التيارات الوافدة، وأعتقد أن الضرورة تحتم أن يكون للمسلمين نظرتهم النقدية التي تتعمق في بحث القضايا بكل أبعادها، وتُحللها من جميع جوانبها، وتخط لنفسها طريقًا لا يتجاهل الواقع من ناحية، ولا يندفع دون وعيٍ نحو كل دعوة جديدة من ناحية أخرى.

وأودُّ أن أشير هنا إلى بعض الملاحظات المبدئية:

أولًا: الإسلام كدينٍ ليس تيارًا فكريًّا أو ظاهرة وقتية حتى يخشى عليه من التيارات الفكرية الوافدة، إنه دين له

جذور ضاربة في أعماق الكيان الإسلامي، وأصول راسخة لا تستطيع أن تنال منها التيارات الوقتية الطارئة، ولا يخشى على هذا الدين من أي تيارات داخلية أو خارجية مهما كانت قوتها طالما فهم المسلمون هذا الدين فهمًا صحيحًا، وأدركوا إدراكًا واعيًا أهدافه النبيلة وغاياته السامية وجوهره الحقيقي.

ثانيا: العولمة واقع لا يجدي معه أسلوب الرفض، إنه تيارٌ بدأ بالمجال الاقتصادي ثم امتد إلى المجالين السياسي والثقافي، بالاضافة إلى المجال الإعلامي، وهذا الواقع يعد حقيقة ماثلة أمامنا لا مجال لإنكارها.

ثالثًا: لا يجوز لنا أن نتجاهل أننا لا نعيش وحدنا في هذا العالم، وأننا نعيش الآن في عصر ثورة الاتصالات والمعلومات، والثورة التكنولوجية، وفي عصر السماوات المفتوحة، وهذا يعني أنه لا مجال للانعزال أو التقوقع.

وإذا كانت العولمة تهدف إلى إزالة الحواجز بين الأمم والشعوب ـ كما سبق أن أشرنا ـ وتحاول بطرق مختلفة فرض قيم معينة وحضارة معينة هي قيم الحضارة الغربية، أو قيم الأقوياء، فإن ذلك لا ينبغي أن يصيبنا بالفزع وفقدان التوازن؛ لأن ذلك لن يجد فتيلًا، ولن يتيح لنا الفرصة للتفكير السليم، فنحن ـ كما سبق أن أشرت ـ أمام واقع، وواجبنا هو أن نتعامل معه، وهذا الواقع ليس كله شرًا، وليس كله خيرًا، ومن هنا ينبغي التعامل معه على هذا الأساس.

إن العولمــة ـ في رأينا ـ تمثل بالنســبة للمســلمين دعوة غير مباشــرة إلى ممارســة النقــد الذاتي ليعيــدوا النظر في حســاباتهم، ويعيدوا ترتيب البيت مــن الداخل، وهذه الدعوة تأتــي بطبيعــة الحال دون قصــد من أصحــاب العولمة، وقد يرى البعض أن العولمة تمثل اســتفزازًا للمسلمين، ونرى أنه اســتفزازٌ مفيد إذا أحســن المســلمون التعامل معه بأسلوب عقلاني بعيد عن التشنج والانفعال.

إن القضية ـ في رأينا ـ تدور حول أسلوب التعامل مع هذا الواقــع الجديد والتفاعل معه بطريقة ســليمة، أما إذا تجاهلنا الواقع واكتفينا بعبارات الرفض والشجب والإدانة والاستنكار لأســاليب الهيمنة والسيطرة وفرض النظم الغربية.. إلخ فإننا بذلك سنظل ندور حول أنفسنا مكتفين بدفاع الحناجر، وهذا أمر لا يرضاه مســلم عاقل، ولســنا في حاجة إلى التأكيد على أن العالم الإســلامي يملك كل أســباب القوة الاقتصادية، فهو عالــم غني بمــوارده الطبيعيــة، وموقعه الجغرافــي المتميز، وثروتــه البشــرية، ولا تنقصه الكفــاءات العلميــة والخبرات الاقتصاديــة، وكل مــا يحتاجــه هــو الإرادة الفاعلــة لتحقيق الانطلاقة الاقتصادية المرجوة.

إن الأمــر إذن بيدنا ـ نحن المســلمين ـ وعلينــا أن نختار لأنفســنا الطريق القويم المحقق للأهداف، وعلينا أن ندرك أن الإسلام منذ اللحظة الأولى كان ـ ولا يزال ـ دعوة عالمية للناس جميعًــا، ومــن هنا لفت نظرهــم إلى وحدة الأصل الإنســاني،

فالنـاس جميعًـا إخـوة، وإذا كانـوا مختلفين في أجناسـهم وأعراقهم ومعتقداتهم فإنهم ـ على الرغم من ذلك ـ ينتسبون جميعًا إلى أصل إنساني واحد.

وهـذه الاختلافـات ـ فـي ضـوء هـذه الوحدة الإنسـانية الراسـخة ـ من شـأنها أن تكـون منطلقًا للتعـارف والتآلف والتعاون، لا للتنازع والتخاصم والشـقاق ـ كما يقرر القرآن الكريم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾

(الحجرات: ١٣)

وهكـذا كانـت دعـوة الإسـلام دعـوة عالمية إلـى الأخوة الإنسـانية فـي كل زمانٍ ومـكانٍ، ويمكن القول بأن الإسـلام يُعـد ديـن العولمة الحقيقيـة، وإن كان هذا القـول لن يروق لفريقيـن على طرفـي نقيضٍ، أحدُهما سـيعتبرُ ذلك محاولةً لأسـلمة العولمة، وثانيهما سـيعده دعوة إلى تغريب الإسلام، وكل الفريقين جاهز بشـعاراته لخوض معركة وهمية لا نريد أن نشغل أنفسنا بها.

إن العالم يسيرُ من حولنا بسرعة مذهلة، والمتغيرات على السـاحة الدولية لا تكـف عجلتها عن الدوران، وقد اسـتطاع الغرب أن ينشر العولمة بإيجابياتها وسلبياتها بفضل الثورة العلمية والتكنولوجية، وثورة المعلومات والاتصالات وشـبكة المعلومـات الدولية «الإنترنت»، والبث التليفزيوني المباشـر،

وامتلاك ناصية المعرفة والمعلومة التي أصبحت اليوم مصدر القوة، وكلُّ يوم يمضي يزيد من اتساع الفجوة بين المسلمين وبين العالم المتقدم، ولا خلاص لنا إلا بالأخذ بكل أساليب التطور العلمي والتقني والحضاري، والعمل الجاد المنتج على جميع المستويات، والمشاركة الفعالة في تقرير مصير هذا العالم الذي نعيش فيه، والإسهام في استعادة التوازن المفقود في حضارة العصر، وإلا فلسنا جديرين بالحياة، ولم يعد لصياح الحناجر ورفع الشعارات الجوفاء أيُّ معنى.

لقد أضاع المسلمون الكثير من عمر الزمن في تفاهات الأمور، والآخرون يصارعونهم في عظائم الأمور، والغالبية من المسلمين غير واعين بمتغيرات العصر، وغير مدركين لأبعاد المخاطر التي تحيط بهم من كل جانب؛ لأنهم مشغولون بقضايا هامشية، ومهتمون ببعض المظاهر الشكلية في الدين، والآخرون يزلزلون في جذورهم وهم لا يشعرون.

إن الأمر جد خطير، وعلى مفكري المسلمين في كل مكان ألا يكفوا عن الدعوة إلى إيقاظ النائمين وتنبيه الغافلين لتنهض الأمة وتشارك في مسيرة التقدم على المستويين المادي والروحي، وتحتل مكانها اللائق بها بين الأمم.

(٢)

الأمن المجتمعي في الإسلام

مفهوم الأمن من المفاهيم المحورية في حياة الإنسان، لقد كان ذلك هو الحال في الماضي، ولا يزال كذلك في الحاضر وسيظل في المستقبل أيضًا، فالأمن ركيزة أساسية لكل تحركات الإنسان في مختلف المجالات، وبدون الأمن تختلف الموازين وتضطرب حركة الحياة وتتوقف عن الانطلاق نحو تحقيق الآمال للأفراد والجماعات.

ومن هنا تحرص الأمم في كل زمان ومكان على توفير الأمن لشعوبها حتى تستطيع الانطلاق إلى آفاق التقدم والرقي، وعندما نتحدث عن الأمن فإننا نقصد الأمن بمفهومه الشامل لكل جوانب الحياة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو دينية، وعلى مستوى الأفراد والجماعات.

ويرتبط مفهوم الأمن في الشريعة الإسلامية بالحقوق الأساسية، والتي بدون الحفاظ عليها لا يمكن الحديث عن الأمن في أي صورة من الصور، وتتمثل هذه الحقوق الأساسية للإنسان في المقاصد الخمسة للشريعة الإسلامية، وعلى رأس هذه المقاصد حماية حق كل فرد في المجتمع في الأمن على حياته، فالإنسان خليفة الله في الأرض، كرمه وفضله على بقية المخلوقات وكلفه بعمارة الأرض وصنع الحضارة فيها، وحتى يستطيع أن يتحمل مسئولياته التي كلفه الله بها في هذه الحياة لا بد أن يكون آمنًا على حياته في المقام الأول،

وآمنًا على عدم المساس بها بأي شكل من الأشكال.

ويرتبط بضمان حق الحياة للإنسان مقاصد أخرى أساسية تعد أيضًا شروطًا أساسية لا غنى عنها لتوفير الأمن للأفراد والجماعات، وتتمثل هذه الشروط في الحفاظ على العقل وتمكينه من أداء دوره الفاعل في حياة الإنسان، وكذلك الحفاظ على عقيدة الفرد وعدم المساس بها أو العدوان عليها، فهي من أخص خصوصياته التي من شأنها أن توفر له الأمن النفسي والاطمئنان الداخلي، ويؤكد الإسلام أيضًا على حماية الملكية الخاصة للأفراد والجماعات وعلى حماية الأسرة التي تعد الخلية الأساسية لتكوين المجتمعات على نحو سليم.

ومن ذلك يتضح أن الأمن يتسع مفهومه ليشمل الأمن النفسي والروحي والذي يطلق عليه القرآن الكريم: السكينة، بمعنى الاطمئنان النفسي الذي يقضي على كل شكل من أشكال القلق من النفوس، وذلك فضلًا عن الأمن المادي أو الخارجي، وقد أكد القرآن الكريم على الأمن في هذين الجانبين في قوله تعالى متحدثًا عن أهل مكة:

﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴾ (قريش: ٣، ٤)

ومقصد الإسلام من ذلك كله هو سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة على السواء، وإذا اطمأن الإنسان وزالَ عنه القلق أصبح إنسانًا سويًّا قادرًا على الإسهام بشكل فاعل في توفير الأمن للمجتمع؛ فأمن المجتمع من أمن أفراده، وتحقيق الأمن المجتمعي على المستويين المادي والروحي هو الهدف الأسمى لتعاليم الإسلام.

ولم تقتصر تعاليم الإسلام على توفير وضمان الأمن المجتمعي للمسلمين فقط، بل إن مظلة هذا الأمن المجتمعي تمتدُّ لتشمل كلَّ من يعيش في بلاد المسلمين بصرف النظر عن دينه أو جنسه أو لونه؛ فهؤلاء يشكلون جزءًا أساسيًّا من المجتمع لهم جميع الحقوق وعليهم نفس الواجبات، وهذا تطبيق لمبدأ المواطنة والتعددية الدينية والثقافية التي وضع أساسها النبيﷺبعد الهجرة إلى المدينة وأثبتها في صحيفة المدينة التي تعد أول وثيقة إسلامية تضمن الحقوق للمواطنين جميعًا مسلمين وغير مسلمين.

واهتمام الإسلام بذلك كله هو اهتمام في الوقت نفسه بأمن واستقرار هذا العالم الذي نعيش فيه؛ فالمجتمع الإسلامي إذا توافرت له كل أسباب الأمن سيكون من غير شك سندًا قويًا ودعمًا أكيدًا لأمن واستقرار هذا العالم، فالأمن في المجتمع الإسلامي لا يمكن فصله عن الأمن في المجتمعات الأخرى؛ فدوائر الأمن متداخلة وبخاصة في عصرنا الحاضر عصر العولمة، فما يحدث اليوم في مكانٍ ما من العالم ينعكس أثره سلبًا أو إيجابًا، عاجلًا أو آجلًا في كل مكان في العالم.

ومن هنا لم يعد التَّقوقع أو الانعزالُ عمَّا يجري في عالمنا المعاصر أمرًا ممكنًا، فكلُّنا في النهاية في زورقٍ واحدٍ، ومصيرنا جميعًا مصير واحدٌ مشتركٌ، والأخطارُ التي تهدد عالمنا تمسُّ بشكل أو بآخر بقية أجزاء العالم.

وفي تشبيه رائع يصور النبيُّﷺ البشرية كلها وقد اجتمعت في سفينةٍ، بعضُهم في أعلاها وبعضُهم في أسفلها، فكان الذين

في أسفل السفينة إذا احتاجوا إلى الماء صَعدوا إلى أعلاها، وبعد أن تعبوا من الصعود والهبوط ومضايقة الآخرين فكَّروا في إحداث خرق في أسفل السفينة يستقون منه حاجتَهم من الماء، ويقول النبي ﷺ: «فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا»(٥٠)، ومن هنا فإنه لا بد من التعاون بين الجميع من أجل إنقاذِ حياتهم جميعًا، وهذه دعوة إلى التضامن بين البشر جميعًا من أجل درء الأخطار التي تهدد العالم الذي نعيش فيه والذي هو عالمنا جميعًا.

وتعدُّ الزكاة في المجتمع الإسلامي أحد العوامل المهمة في تحقيق التضامن والتكامل بين أفراد المجتمع، وتسهمُ بالتالي بدور فعالٍ في تحقيق الأمن المجتمعي المنشود، فمن المعروف أن من خصائص الإسلام التي ينفردُ بها عن جميع الديانات والشرائع أنه ليس دينًا روحيًّا فقط يصرف الإنسان عن دنياه إلى أخراه، وإنما هو دين اجتماعي في المقام الأول، يسعى إلى تحقيق السعادة للإنسان في الدنيا والآخرة على السواء، ومن هنا فإنه يوجهُ الإنسان إلى العمل من أجل الدنيا كأنه يعيش أبدًا وإلى العمل من أجل الآخرة كأنه يموت غدًا، والقرآن الكريم يشير إلى أن العطاء الإلهي والثواب يشمل ثواب الدنيا والآخرة معًا في قوله تعالى:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ (النساء: ١٣٤)

وقد حرص الإسلام على إتاحة كل السبل التي تحقق هذه

(٥٠) أخرجه البخاري (٢٤٩٣) من حديث النعمان بن بشير -رضي الله عنه-.

الأهـداف، فاتجهت تشـريعاته إلي تهذيب الفطرة الإنسـانية وإلى تنظيم شـئون المجتمع، ونظرًا إلى أنه من سنن الله في الكون أنه قد خلق الناس مختلفين على الرغم من اتفاقهم في الجوهر، فإن هذا الاختلاف ينسحب على العديد من الصفات، كما يشمل التفاوت في الغنى والفقر لحكمة أرادها الله تعالى، فالبعض منهم يعمل للآخرين ويسـتمد رزقه من رزقهم، كما يقول القرآن الكريم:

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (الزخرف: ٣٢)

وقـد حاولت الأنظمة البشـريَّة على اختـلاف توجهاتها علاج الفروق بين الأغنياء والفقراء في المجتمع، وخاضت من أجل ذلك العديد من التجارب ما بين رأسـمالية واشتراكية أو خليط منهما معًا، ولكنها جميعًا لم تحقق للإنسـان السـعادة المنشـودة، أما الإسلام فقد وضع العلاج الشافي والناجع لهذه المعضلة المزمنة، وجعل العلاج دينًا يتعبد الناس به تقربًا إلى الله سبحانه وتعالى، وقد تمثل العلاج الإلهي في نظام الزكاة.

والـزكاة في الإسـلام نظامٌ فريدٌ ارتفع به الإسـلام ليجعله فريضـة من فرائضـه، وركنًا ركينًـا من أركانـه؛ ليقيم بذلك التوازن بين الأغنياء والفقراء في المجتمع.

وقـد نبه القـرآن الكريم إلى أن الزكاة التـي يدفعها الغني للفقير ليست منّةً أو تفضلًا، وإنما هي حق معلوم قرره الدين كما يقول القرآن الكريم:

﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾
(المعارج: ٢٤، ٢٥)

وهكذا نجد أن الزكاة من شأنها أن تحقق التكافل الاجتماعي وتزيل الحسد والحقد من نفوس الفقراء ضد الأغنياء.

ولو أدى المسلمون في جميع أنحاء العالم الزكاة عمَّا أنعم الله به عليهم من أموال إلى مستحقيها في المجتمع لما وجدنا هناك فقيرًا يشكو من البؤس والحرمان.

وقد تعقدت أمور الحياة في العصر الحاضر، وأصبح العالم الإسلامي يشكو من الزيادة الرهيبة في أعداد السكان الذي وصل إلى مليار ونصف مليار مسلم، ويشكو بالتالي من انخفاض مستوى المعيشة وازدياد الهوة بين الأغنياء والفقراء، ولم يعد أمام العالم الإسلامي لحل هذه المشكلات الحياتية التي يعيشها إلا اللجوء إلى الحل الذي عرضه الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا لتحقيق التوازن بين طبقات المجتمع، وتحقيق الأمن والاستقرار في أقطاره، وهذا الحل يتمثل في نظام الزكاة الذي لو أحسن تنظيمه واستثماره لتغيرت الصورة تمامًا في عالمنا الإسلامي.

وكما يحرص المسلمون على أداء الصلاة فإن عليهم أيضًا أن يدركوا أن الزكاة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالصلاة، ولهذا تقرن الكثير من آيات القرآن إقامة الصلاة بإيتاء الزكاة؛ إشارة إلى أهميتها، وتكفل الله ببيان مصارفها في آية كريمة من كتاب الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا

وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

(التوبة: ٦٠)

وحبذا لو قامت مؤسسات أهلية في عالمنا الإسلامي للنهوض بعبء جمع الزكاة وتوزيعها على مستحقيها.

والأمر يحتاج إلى المزيد من التوعية، فالزكاة فضلًا عن أنها تطهير وتزكية للمزكي -كما يقول القرآن الكريم - فإنها من ناحية أخرى كفيلة بحماية ماله وضمان نمائه ولن تنقصه أبدًا كما يقول النبي ﷺ: «ما نقص مال عبد من صدقة»[٥١]، والله -سبحانه وتعالى- قد وعد المحسنين الذين يؤدون زكاتهم بمضاعفة الأجر لهم أضعافًا مضاعفة في الدنيا والآخرة على السواء، كما جاء في قوله تعالى:

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(البقرة: ٢٦١)

---

(٥١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٥) من حديث أبي كبشة الأنماري- رضي الله عنه-، مطولًا، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣)

الحفاظ على حرمة أماكن العبادة[٥٢]

أود في البداية قبل أن أتحدث عن مشروع القانون المعروض أن أوضح نقطة مهمة تبين الفرق بين ما أثير في بعض وسائل الإعلام من الخلط بين حرية التعبير ومشروع هذا القانون.

مشروع القانون المعروض عنوانه: «الحفاظ على حرمة أماكن العبادة» وهذا يعني صيانتها من العبث بها تحت أي مسمى من المسميات؛ وذلك حتى تستطيع أن تؤدي رسالتها الدينية على خير وجه، وإذا كانت حرية التعبير مكفولة في الدستور بنص المادة (٤٧) وينظمها القانون؛ فإن حرية ممارسة الشعائر الدينية يحميها الدستور أيضًا في المادة (٤٦)، ولا يجوز أن يكون هناك تعارض بينهما، فحرية ممارسة الشعائر الدينية في أماكن العبادة تعني عدم وجود أي شكل من أشكال الإزعاج أو التشويش يمكن أن يخل بهذه الممارسة للشعائر الدينية عن طريق التظاهر في المساجد أو بأي شكل آخر، إننا هنا إذن أمام مجالين مختلفين لا يجوز الخلط بينهما، فأحدهما أمر دنيوي والثاني أمر ديني، وكل له

---

(٥٢) نص البيان الذي ألقيناه في مجلس الشعب بمناسبة مناقشة مشروع قانون الحفاظ على حرمة أماكن العبادة.

دائرة اختصاص تختلف عن الأخرى.

ومن هنا فإن منطلقنا في هذا المشروع هو الدين وما يقرره في ذلك اعتمادًا على نصوص صريحة واضحة لا تقبل التأويل.

إن أماكن العبادة لها مهمة أساسية هي التعبد لله وحده، هذا التعبد الذي يُعبِّر عن صلة حميمة بين الله والإنسان، بين العابد والمعبود، وحتى تتهيأ الفرصة للإنسان للدخول في هذه الصلة على نحو سليم فقد تقرر في الأديان السماوية إقامة أماكن خاصة للعبادة تُشعِر الإنسان بالخشوع والخضوع لله، يتعبد فيها العابد دون إزعاج أو تشويش على عبادته بأي شكل من الأشكال؛ لأن أماكن العبادة هي بيوت الله التي لها حرمتها وقداستها، وعلى المؤمنين حمايتها وصيانتها مبنى ومعنى، ومن هنا قرر القرآن الكريم أن المساجد لله وحده فقال:

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾

(الجن: ١٨)

وعندما يدخل العابد في صلة مع الله عن طريق الصلاة فإن القرآن يطلب منه عدم الجهر بصلاته حتى لا يشوش على غيره، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾

(الإسراء: ١١٠)

فـإذا كانـت العبـادة ذكرًا لله فـلا يجـوز أن يرفع صوته بالذكر أيضًا، بل يجب أن يكون ذلك بصوت خفيض كما جاء في القرآن الكريم:

﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ ﴾ (الأعراف: ٢٠٥)

ومن أجل ذلك وجدنا النبي ﷺ يقول: «جَنِّبُوا مَسَـاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُـمْ، وَمَجَانِينَكُمْ، وَشِـرَاءَكُمْ، وَبَيْعَكُـمْ، وَخُصُومَاتِكُمْ، وَرَفْعَ أَصْوَاتِكُمْ، وَإِقَامَةَ حُدُودِكُمْ، وَسَلَّ سُيُوفَكُمْ»[٥٣].

ومـن المرويات عن رسـول الله أيضًا في هذا السـياق أنه خرج يومًا إلى الناس في المسجد ليخبرهم بموعد ليلة القدر؛ فوجـد رجلين يختصمان في المسـجد، فكان ذلك سـببًا في حجب تحديد موعد ليلة القدر[٥٤].

وعندما توفي النبيﷺ واجه المسـلمون أخطر قضية في تاريخ الإسـلام؛ وهي اختيار خليفة للرسـول، وكان يفترض أن يذهبـوا إلى المسـجد للتـداول في هذه القضيـة، ولكنهم لم يفعلوا ذلك، واجتمعوا في سـقيفة بني سـاعدة لمناقشـة الأمر الذي يسـتدعي بطبيعة الحال اختلافًا فـي الآراء ورفعًا

---

(٥٣) أخرجه ابن ماجه (٧٥٠) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة: ١/٩٥: «إسناده ضعيف».

(٥٤) أخرجه البخاري (٤٩) بلفظ: «أَنَّ رَسُـولَ الله ﷺ، خَرَجَ يُخْبِرُ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ فَتَلَاحَى رَجُلَانِ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ فَقَالَ: إِنِّي خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ الْقَـدْرِ وَإِنَّهُ تَلَاحَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَرُفِعَتْ...».

للأصوات، وهذا أمر لا يليق أن يتم في المسجد[٥٥].

وقد سار الصحابة -رضوان الله عليهم- على نهج رسول الله؛ ولذلك عندما رأى عمر بن الخطاب رجلين في المسجد يرفعان صوتيهما نهرهما وقال لهما مستنكرًا: «لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ»[٥٦].

وقد سئل الإمام مالك عن رفع الصوت في العلم في المسجد فقال: لا أرى في ذلك خيرًا.

ومن ذلك يتضح أن مهمة المسجد قد تحددت من خلال نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية وأفعال الصحابة، والنبي يقول: «إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ»[٥٧].

والنصوص الواردة في هذا الشأن من القرآن والسنة ليست محلًّا للاجتهاد، فلا اجتهاد مع النص كما هو مقرر في علوم الشريعة.

ويضاف إلى ذلك كله بُعدٌ آخر في غاية الأهمية، وهو أن المترددين على المساجد للعبادة يُعَدّون ضيوفًا عند الله

---

(٥٥) أخرج خبر السقيفة البخاري في صحيحه (٢٤٦٢) عن عمر- رضي الله عنه-.

(٥٦) أخرجه البخاري (٤٧٠) من طريق السائب بن يزيد... به.

(٥٧) أخرجه الحاكم في المستدرك: ٩٣/١، من حديث ابن عباس وأبي هريرة -رضي الله عنهم-.

في بيته، ومـن الآداب المرعية في حياتنا العملية عند زيارتنا لبعضنا في بيوتنا ألا نُقدِم على أي عمل من شـأنه أن يُغضب صاحـب البيت أو يخل بآداب الضيافـة، وإذا كان الأمر كذلك بين البشر؛ فإن من غير المفهوم أو المعقول أن يصر البعض منـا على الإخلال بآداب الضيافـة عندما يكون ضيفًا عند الله في بيته، في حين أنه لا يجرؤ على شيء من ذلك عندما يكون في ضيافة أحد الناس.

لقد تعهد الله -سـبحانه وتعالى- عندما يستضيف متعبدًا فـي بيته أن يكرمه، كما جاء في الحديث الشـريف الذي رواه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : «الْمَسَاجِدُ بُيُوتُ اللهِ فِي الْأَرْضِ وَحَقٌّ عَلَى الْمَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ زَائِرهُ»[٥٨].

فهل يكون الرد على هذا الإكرام الإلهي بالإخلال بقدسـية وحرمة بيوت الله؟! إن هذا أمر غير مقبول لا عقلًا ولا شـرعًا ولا عرفًا.

لقد لاحَظَـت وزارة الأوقاف منذ بضع سـنوات وحتى الآن أن بعض المسـاجد تنتهك حرمتهـا ويتخذها البعض مقرات للتظاهـر لفترات طويلـة بعد صلاة الجمعة من كل أسـبوع، مسـتخدمين في ذلـك مكبـرات للصوت يحضرونهـا معهم، ويسـتدعي هؤلاء مسـبقًا بعض القنـوات الفضائية وبخاصة

(٥٨) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٤٦١٥) عن عمر -رضي الله عنه- موقوفًا.

تلكـم الفضائيات المتخصصة في الهجـوم على مصر، وذلك بقصـد الدعاية والترويج لأفكار سياسـية لا صلة لها بالدين، فضلًا عن الشتائم والهتافات التي لا تليق بأي حال من الأحوال أن تنطلق من بيوت الله، وقد وصل الأمر إلى الحد الذي أصبح السكوت عليه يعد مخالفة لتعاليم الدين.

فهل يعقـل أن تصبح بعض المسـاجد-وبخاصة الجامع الأزهـر - مثـل حديقـة هايد بارك فـي لندن؟ إن هـذا هو ما يحدث للأسـف الشـديد، وليس فيما أقـول أي مبالغة، فلدي عينـات من بعض صور هـذه التظاهرات فـي الجامع الأزهر بالذات نشرتها بعض الصحف، أود أن أعرض على حضراتكم بعضًا منها:

١- مظاهـرة بالشباشـب فـي الجامع الأزهر، (منشـورة بجريدة الوفد في ١٢ / ٨ / ٢٠٠٦م).

٢- مظاهرة تُحرق فيها الأعلام بالجامع الأزهر، (منشـورة بمجلة أكتوبر ١٣ / ٨ / ٢٠٠٦م).

٣- مظاهـرة للاحتفال بحـزب الله اللبنانـي ورفع أعلامه فـي الجامع الأزهر، (منشـورة بجريدة الوفـد في ١٩ / ٨ / ٢٠٠٦م).

وذلـك فضلًا عـن التطـاول علـى العلماء الذيـن يقومون بالخطابـة في المسـجد؛ لأنهم لا ينصاعون لمـا يريده هؤلاء المتظاهرون قولًا أو فعلًا، وغير ذلك من أمثلة أخرى صارخة.

فهل هذا يتفق مع حرمة المساجد؟ وهل هذا يليق أن يحدث

فــي بيوت الله التــي قرر القرآن الكريم أنها لــه وحده وأنه لا يجوز أن يذكر فيها اسم أحد غيره كما تقول الآية الكريمة:

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾

(الجن : ١٨)

إن الأمر لا صلة له بحرية التعبير، ولا يعدو الخلط بين حرمة أماكن العبادة وحرية التعبير إلا قلبًا للحقائق وخلطًا للأوراق.

وقد يقال: إن انطلاق ثورة ١٩١٩م كان من الجامع الأزهر، نعــم، لقــد كان ذلك حدثًــا اســتثنائيًّا يمثل اجتماعًــا من كل المصريين على رفض الاحتلال، ومع ذلك لم يكن التظاهر في داخل المســجد، بل خرجت الجموع إلى الشارع تعلن ثورتها ضد المحتلين لأرض مصر.

وقــد يقال: إن الرئيــس عبد الناصر خطــب عقب العدوان الثلاثــي على مصر عــام ١٩٥٦م فــي الجامع الأزهــر، نعم، مــن حق الخليفــة أو الحاكم أو رئيس الدولة شــرعًا أن يقف خطيبًا على المنبر في المســجد بهــدف توحيد صفوف الأمة لمواجهة أخطر القضايا التــي تهددها، كما فعل الرئيس عبد الناصر، ولكن الجامع الأزهر لم يُتخذ حينذاك مكانًا للتظاهر، بل خرجت الجموع إلى الشــارع لتعبر عن وقوفها صفًّا واحدًا لمواجهة الذين دنسوا أرض مصر، ومع ذلك لم يحدث هذا إلا مرة واحدة.

وقد يقال: إن المسجد على عهد الرسول ﷺ كانت تُعقد فيه مجالس التشاور في الحرب والسلم، ومجالس القضاء والعلم، وغير ذلك من أنشـطة أخرى، ونقـول: نعم، لقد كان ذلك يتم في المسـجد؛ لأنه لم تكن هناك مؤسسـات أو دواوين خارج المسـجد، وكان يتعذر إيجاد مكان آخر لمثل هذه الأنشـطة؛ فاقتضت الضرورة حينذاك عقدها في المسجد.

أما الآن ومنذ عهد عمر بن الخطاب فقد تم تدوين الدواوين وتوزيع الاختصاصات على المؤسسات المختلفة، وأصبح لكل منهـا مقرات خاصة بها، ومـن ثَم فإنه من غير المعقول مثلًا أن نغلق المحاكم ووزارات الدفاع والتربية والتعليم، والتعليم العالي والمدارس والجامعات، ونحول أعمالها إلى المسـاجد بحجـة أن ذلك كان معمولًا به في عهـد النبي ﷺ، كما علينا أيضًـا أن نغلـق النوادي الرياضيـة ومراكز الشـباب ونحول أنشطتها إلى المساجد؛ بحجة أن النبي ﷺ قد سمح ذات مرة في أحد الأعياد للأحباش ببعض الألعاب في المسجد.

إن القياس هنـا على ما كان يحدث في عهد النبي ﷺ أمر غير وارد إطلاقًا، فما كان يحدث حينذاك لم يكن تشويشًـا أو أي شـكل من أشـكال الضوضاء والإزعاج في المسجد، فضلًا عن أن هناك فارقًا كما بين السماء والأرض بين ما كان يحدث على عهد رسـول الله وما يقوم به البعض اليوم من مظاهرات

صاخبة تحدث فيها أمور لا تليق بأي حال من الأحوال ببيوت اللـه، ولسـنا نبالـغ إذا قلنـا: إن مـا يحدث اليـوم في بعض المسـاجد يُعد انتهاكًا صارخًا لحرمـة دور العبادة، ولا يتفق بأي حال من الأحوال مع الدين أو العقل أو الأعراف المرعية.

ومـن هنا جاء التفكير في وضع حد لهذا العبث ببيوت الله التـي أذن أن ترفع ويُذكر فيها اسـمه وحده كما يقرر القرآن ذلك في قوله:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾

(النور : ٣٦، ٣٧)

ومـا قلناه عن المسـاجد والحفاظ على حرمتها ينسـحب بطبيعة الحال على دور العبادة المسـيحية واليهودية. فكلها بيوت يذكر فيها اسم الله كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴾

(الحج : ٤٠)

ومعنى الآية: أنه لولا أن الله يسخر للقوي المعتدي من هو أقـوى منه لطغى في الأرض وعم شـره إلى الحد الذي يخرب

فيه بيــوت الله التي خُصصت للعبادة وذكــر الله، والمقصود بالصوامع الأديرة، أما البِيع فهي الكنائس، وأما الصلوات فهي معابد اليهود، والمساجد هي معابد المسلمين.

ومــن هنا فالحفاظ على حرمة هــذه الأماكن وصيانتها من العبث بها بأي شكل من الأشكال أمر واجب على كل من يؤمن باللــه وملائكته وكتبه ورســله واليوم الآخر، وهــي أمانة في أعناق الجميع.

وإذا كنا جميعًا مسئولين عن حماية بيوت الله والغيرة على ديــن الله؛ فإن الأمر يتطلب تشــريعًا يؤكد ذلك ضمانًا لوضع الأمــور في نصابها الصحيح، ووضع حد لما طرأ من خلل في السنوات الأخيرة على هذا الالتزام الديني المقدس.

الفهرس

طليعة الكتاب ٣
الفصل الأول: الفكر الديني والحقائق الغائبة ٧
(١) تجديد الفكر الديني ٨
(٢) مقاصد الشريعة ١٥
(٣) الاجتهاد والتقليد وفقه الواقع ٢٢
(٤) الدين والفلسفة ٢٨
(٥) الدين والخرافة ٣٤
(٦) السنن الإلهية ومفاتيح الحضارة ٣٨
(٧) الإرادة الإنسانية والقضاء والقدر ٥٠
(٨) قل إنما أنا بشر مثلكم ٥٦
(٩) الإيمانُ والحبُّ ٦١
الفصل الثاني: العقل الإنساني ودوره في التقدم الحضاري ٦٩
(١) العقل الإنساني ٧٠
(٢) التفكير النقد ي والتطور الحضاري ٧٥
(٣) الكم والكيف في ميزان العقل والدين ٨٢
(٤) الحرية والضوابط الأخلاقية ٩٠
(٥) خواطر حول الجهود العلمية الإسلامية بين الماضي والحاضر ٩٨
(٦) فلسفة المقاومة ١٠٨
(٧) قيمة الوقت في حياتنا ١١٢
الفصل الثالث: قضايا معاصرة في ضوء تعاليم الإسلام ١١٩
(١) الحضارة الإسلامية في مواجهة التحديات المعاصرة ١٢٠
(٢) الأمن المجتمعي في الإسلام ١٣٥
(٣) الحفاظ على حرمة أماكن العبادة ١٤٢